العلماء في بلاد الشام في القرن العاشر الهجري

على ضوء كتاب الغزي " الكواكب السائرة "

ندى زاهد صعيدي

Submitted in partial fulfillment of the requirements of the degree of Master of Arts in the Department of History of the American University of Beirut.

Beirut, Lebanon - 1974.

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Title:

العلماء في بلاد الشام في القرن العاشر الهجري

على ضوء كتاب الغزي " الكواكب السائرة "

The 'Ulama' in Bilad al-Sham in the 10th AH/16th AD century in the light of al Ghazzi's book "al Kawakib-al Sa'ira".

By

Nada Zahed Saidi
(Name of Student)

Approved :

Dr. Tarif Khalidi — Advisor

Dr. Constantine Zurayk — Member of Committee

Dr. Mahmoud Zayid — Member of Committee

Member of Committee

Date of Thesis Presentation: October 1974.

(THESIS RELEASE FORM)

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis release form

I, NADA ZAHED SAIDI , (student's name)

✓ authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals on request.

OR

do not authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals.

Nada Z. Saidi

Signature

October 1974

Date

(Indicate whichever wording is applicable.)

العلماء في بلاد الشام

صعيدى

A B S T R A C T

The study that I have undertaken in this research is about the ʿUlamāʾ of Bilād al-Shām in the Tenth Century of the Hijrah Era (16th Century AD): who they were; their life and work; their income and professions; their study and writings; the cities and towns they lived in; the significant role played by the Ulama in their different communities; and finally the various aspects of life in Muslim cities.

The information for this research was drawn mainly from Najm al Dīn al Ghazzi's biographical dictionary, Al Kawākib al Sāʾira. The reason for my choice of this book as a major source of information on the lives of the Ulama was that the writer, himself, belonged to that same class. He wrote about members of his own community. It is a contemporary source since Al Ghazzi wrote about people known by himself, his family, or prominent scholars like Ibn Ṭūlūn.

It was difficult to make a full study of each of the ʿUlamāʾ of Bilad al Shām, so a hundred of them were chosen from the three volumes of the book for detailed statistical study. From this sample group I drew a vivid idea of their religious, economic, social and political lives, and of the different aspects of the life of the community in that particular period of time. In addition, I formed a detailed picture of the role they played in their societies; their contribution to religious and ethical studies, and to the administration of the country. Above all, I pointed out the vital

ABSTRACT (continued)

part they played as a significant group, unhampered by class restrictions, in penetrating all classes of the various communities during the later Mamluk and early Ottoman rule.

- - - - - - - - - - -

/...

المقدمة

موضوع الدراسة الذى سنتناوله في هذا البحث هو " العلماء في القرن العاشر الهجرى " . من هم ؟ من أين أتوا ؟ حياتهم وأعمالهم ، موارد رزقهم ووظائفهم المختلفة ، دراستهم ومؤلفاتهم ، الدور الذى لعبوه وأثرهم في الحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية في ذلك العصر . واذا تساءلنا ما هو السبب الذى يدفع المرء الى البحث في هذا الموضوع ، فالجواب هو ان هناك عدّة عوامل ودوافع تدفع الباحث لأن يخوض فيها ويتساءل عنها وأهمّ هذه الاسباب هي الآتية :

أولا – ليس هناك دراسة شاملة عن العلماء في ذلك العصر وخاصّة حياتهم الاجتماعية والسياسية والفكرية .

ثانيا – كان العلماء طبقة مميّزة في القرن العاشر الهجرى لقيادة الشعب ولمساندة الطبقة الحاكمة في الحكم وخاصّة فترة الاضطراب السياسي وزوال دولة وقدوم أخرى .

ثالثا – لابراز صورة واضحة عن الحياة الثقافية والفكرية في بلاد الشام .

رابعا – لأهميّة الدور الذى لعبه العلماء كحلقة وصل بين طبقات المجتمع .

على ضوء هذه النقاط سأتناول هذا الموضوع وذلك بتركيز البحث في كتاب الغزّى ، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة . واعتماده لاستقصاء المعلومات التي تزيل بعض التساؤل في هذا الموضوع وتعطينا صورة واضحة عن علمائنا في ذلك العصر .

١- المصادر .

أ - أهمية كتاب الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة .

انه لمن حسن الحظ ان الأمة العربية أغنى الأمم في كتب السير . وقد ولع المؤرخون العرب بهذا الفن وسبقوا الأمم المعاصرة في هذا المضمار فتنوّعت تآليفهم وتعدّدت . فمنها ما رتّبت السير فيه على طبقات فهناك كتب لطبقات الشعراء ، والنحاة ، والأدباء ، والأطباء ، ومنها ما تعدّى الى تراجم الاعيان عامّة دون الاقتصار على طبقة خاصّة . ومنها ما رتبت السير فيه على المشاهير في هذا القرن او ذاك . فهناك كتاب في اعيان القرن الثامن (١) ، وذاك في أعيان القرن التاسع (٢) ، وهناك كتاب الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، لنجم الدين الغزى ، موضوع بحثنا هذا . ثم يليه كتاب لأعيان القرن الحادى عشر (٣) والثاني عشر (٤) والثالث عشر (٥) .

وتأتي أهميّة كتاب الكواكب من حيث ان مؤلفه هو عالم من طبقة العلماء كتب عن أهل بيته وأقرانه ومعاصريه . فقد كان نجم

---

(١) الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة ، لابن حجر العسقلاني .

(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، للسخاوى .

(٣) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر ، للمحبي .

(٤) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، للمرادى .

(٥) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، للبيطار .

الدين الغزى من بيت تقوى ، فوالده وجدّه كانا من شيوخ الاسلام وهذا ما ميّزه عن غيره من العلماء وكتّاب التراجم . وضع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء أسماها المؤلف " طبقات " يدور الأول منها في تراجم الاعيان المتوفّين في أول سنة تسعمئة الى آخر سنة تسعمئة وثلاثين . ويدور الجزء الثاني على المتوفّين في الثلث الثاني من القرن المذكور . ويدور الثالث على المتوفّين في الثلث الأخير . وقد رتّب المؤلف التراجم في كل جزء على حروف المعجم ولم يستثن من أسماء المترجمين الا المحمديين فقد وضعهم في اول كل طبقة ثم بدأ بعدهم بالاعلام التي أولها حرف ألف حتى انتهى الى الياء . تمت كتابة هذه الاجزاء سنة وفاته [(١)] وقد بقيت هذه المخطوطة محفوظة في ثلاثة نسخ : نسخة " الجامعة الأميركية في بيروت " وهذه يظهر على ظاهرتها خط كتب فيه " ملك آل الغزى " . [(٢)] والنسخة الثانية نسخة " الجامع الأزهر " . والنسخة الثالثة هي نسخة " المكتبة الظاهرية " وهذه الأخيرة اعتمدها الدكتور جبرائيل سليمان جبور عند نشره هذا الكتاب الذى تمّ طبعه في المطبعة الاميركانية في بيروت سنة ١٩٤٥ .

ب - طريقة معالجته للموضوع .

يتبع الغزى طريقة معيّنة في معالجته سير كواكبه فهو يذكر

---

(١) توفي الغزى سنة ١٠٦١ هجرية .

(٢) لقد آلت هذه النسخة الى احفاد الغزى في دمشق ثم انتقلت الى مكتبة الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف سنة ١٩٠٩م ، والى مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت سنة ١٩٢٨م .

اسم العالم ونسبه ، وأحيانا عمل الوالد ، وفي بعض الحالات تاريخ ومكان الولادة ، وأسماء الأقارب المرموقين ، ثم يتطرّق الى من حضر العالم لدروسهم ومن أجازه منهم وما هي الكتب التي درسها والوظائف التي تولاها . ثم يذكر أهمّ انتاج العالم الأدبي والكتب التي كتبها والدواوين . وأحيانا يذكر الأوقاف التي أوجدها العالم وشيئا عن علاقته بالسلطة ثم يتطرّق الى ذكر بعض المعلومات العامّة عن احواله الشخصية وأمواله واسفاره والعلوم التي برع بها ، ثم ابنائه وتلامذته الذين اشتهروا من بعده ومن ترجم له منهم . ثم ينتهي الى تحديد مكان وتاريخ الوفاة وسببها ، فأحيانا يذكر المرض الذى أصاب العالم وهذا ما يعطينا فكرة عن الامراض السارية في ذلك العصر ، او ان مات مقتولا من قبل السلطة او اغتيالا . ثم يتطرّق الى ذكر جنازته وكيف كانت والأماكن التي أقيمت له الصلاة بها . لقد أخذت كل هذه المواضيع بعين الاعتبار ودوّنت معلوماتها ثم اخترت مئة من هؤلاء العلماء كنماذج لاعطاء احصائية عن عدة مواضيع وسأشرح طريقة اختيار النماذج في أول الفصل الثاني .

ج — حياة المؤلّف .

مؤلف كتاب الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة هو الشيخ محمد نجم الدين الغزى . وقد كان أبوه شافعيا وكذلك جدّه من قبله ويظهر ان جدهما الاكبر " ضوى " هو اول من نزح من غزة الى دمشق فعرف " بالغزى " ومهما يكن من أمر فالواضح انه من بيت علم وأدب ووجاهة وقد ألف والد جدّه رضي الدين الغزى كتابا في تراجم أهل

القرن التاسع ، رتبه على حروف المعجم . وكان جده من علماء الشافعية بدمشق في زمنه وكذلك كان ولده في عصره وقد ترجم النجم حياتهما في كتابه [(١)] . وكذلك له أخ شاعر اسمه " احمد " وقد ترجمه في الجزء الثالث من كواكبه وكذلك أخ آخر شاعر ايضا وقد ترجم له المحبي ترجمة كبيرة حافلة [(٢)] .

كان مولد صاحب الكواكب يوم الاربعاء حادى عشر شعبان سنة ٩٧٧ هجرية ١٥٦٨م ، وقد تلقّى العلم على والده الذي رأى فيه النبوغ وبشائر مستقبل علمي زاهر ، فأجازه مع من حضر دروسه اجازة خاصّة . وبعد وفاة والده أخذ في طلب العلم فتردّد على مجالس الشيوخ والعلماء ودرس كثيرا من الكتب والشروحات وقد ألّف كثيرا

---

(١) الغزّى ، الكواكب السائرة ، أول الجزء الثاني، ص٧، الجزء الثالث، ص٨٠٠.

(٢) المحبي ، خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادى عشر ، (المطبعة الوهبية - القاهرة ١٢٨٤ هـ) ص ١٣٥-١٣٩ .

من الكتب اهمها في التراجم واللغة والتصريف. (١)

ولم ينقطع الغزي عن الدرس والاستفادة حتى بعد شروعه بالتأليف اذ يذكر المحبي (٢) انه سمع الحديث عن فلان او ذهب الى حلب ليسمع الى فلان ، ثم اذن له " بالفتوى " وقد كان محبا للاسفار مغرما بالحج الى بيت الله الحرام واتفق له ذلك مرات . وقد حضر دروسه كثيرا من تلامذة عصره فاجازهم و برع منهم الكثيرون .

---

(١) اهم كتبه كما اوردها جبور في الجزء الاول صفحة "س" هي :
الجوهر الفريد في الادب الصوفي المريد ، المنحة النجمية في شرح الملحة البدرية ، منظومة في التصريف والخط ، منظومة في النحو ، منظومات في فوائد متفرقة ، شرح المحب الحموي على منظومة المحب ابن الشحنة في المعاني والبيان ، نظم العقيان في مورثات الفقر والنسيان ، فرائض المنهاج في الفقه ، الجمع البتان في شرح ابيات الجمع للشيخ علوان ، كتاب ما وراء الاساطين في عدم الدخول على السلاطين ، بلغة الواجد في ترجمة شيخ الاسلام الوالد ، تحبير العبارات في تحرير الامارات ، تحفة الطلاب ، تحفة النظام في تكبير الاحرام ، التحفة الوردية ، ترجمة الغزي ، التنبيه في التشبيه ، حسن التنبيه لما ورد في التشبيه ، الحلة البهية المنيرة في شروط التكبيرة ، شرح القطر لابن هشام ، شرح القواعد لابن هشام ، شرح لامية الافعال ، عقد النظام لعقد الكلام ، العقد المنظوم في رحلة الروم ، اللآلىء المجتمعه ، الكواكب السائرة بمناقب اعيان المئة العاشرة ، لطف السمر وقطف الثمر في تراجم اعيان الطبقة الاولى من القرن الحادي عشر ، المختار في فقه الحنفية ، مجالس في التفسير الى سورة طه ، مجالس في التفسير الى سورة الاسراء .

(٢) المحبي ، خلاصة الاثر ، ج ٤ ، ص ١٩٧ - ١٩٨ .

وكان قبل موته بست سنوات قد اعتراه طرف فالج فكف عن التدريس . وقرب موته توجه الى القدس وزار عدة مدارس في الرملة وغيرها وعاد الى دمشق حيث انقطع عن الكتابة وتخلى للعبادة وترك التأليف وأخذ يدور على الناس يستسمحهم وخاصة فلاحي أوقاف أجداده الى ان وافته المنية يوم الاربعاء ثاني عشر جمادى الاخره سنة ١٠٦١ هجريه / ١٦٥١م عن ثلاث وثمانين سنة .

٢- المصادر الأخرى .

ويأتي كتاب مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، لشمس الدين محمد بن طولون في المرتبة الثانية من حيث الاهمية في بحثنا هذا ، وذلك لأن الغزي اعتمد كثيرا على ابن طولون في كتابة سيره وتراجمه اذ ان ابن طولون يعطي لنا اخبار العلماء في النصف الاول من القرن العاشر [1] وهو دمشقي حنفي من طبقة المؤرخين الذين جاءت كتابتهم صورة ناطقة لأحوال ذلك الزمان . وقد اهتم ابن طولون في السير فهو له فضلا عن كتاب " مفاكهة الخلان في حوادث الزمان " كتاب اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الكبرى وكتاب قضاة دمشق . هذه الكتب أضفت عنصرا جديدا ومعلومات وفيرة على هذه الدراسة .

---

(١) توفي ابن طولون سنة ٩٥١ هجرية ، صلاح الدين المنجد ، المؤرخون الدمشقيون في العهد العثماني وآثارهم المخطوطه (دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٦٤) ص ٤٨-٤٩ .

كذلك اعتمدنا على كتاب المنتخب في تاريخ حلب لابن الشحنه لأخذ فكرة عن مدينة حلب في ذلك العصر . وقد كان كتاب محمد ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، من الاهمية الكبرى لاعطاء صورة واضحة في التاريخ السياسي للقرن العاشر . هذا فضلا عن كتاب النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، وهو كتاب ذو اهمية كبرى لمعرفة مدارس الشام وعلمائها في الثلث الاول من القرن العاشر ، كذلك كتاب خطط الشام لمحمد كرد علي ، رغم كونه كتابا حديثا الآن معلوماته وفيرة عن حكم السلاطين الاولين في بلاد الشام . لاضافة معلومات عن علماء القرن العاشر هناك بعض التراجم في نشرات من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق .

أما بالنسبة للمصادر الاجنبية فمنها المصادر الاولية كمجموعة الفرمانات السلطانية ، والنظم الاقتصادية والادارية العثمانية المنشورة . هذا فضلا عن مجموعة كتب حديثة تبحث في تاريخ تلك الفترة الاجتماعي والثقافي وهذه أهمها :

1- Gibb and Bowen, Islamic Society and the West.
2- I.M. Lapidus, Muslim Cities in the Later Middle Ages.
3- Albert H. Lybyer, The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent.
4- N.A. Ziadeh, Damascus under the Mamluks.

هذا فضلا عن المقالات والابحاث المنشورة في عدة كتب او مجلات تبحث في تاريخ الشرق الأوسط .(١)

---

(١) راجع الفهرس .

الفصل الأول

.. **المدن الشامية في القرن العاشر الهجري .**

كانت المدن أهم مركز تجمّع السكان في القرن العاشر الهجري في بلاد الشام ، وبالتالي أصبح لها مركز مهمّ لوجود الجوامع والمدارس والمؤسسات التعليمية والادارية بها . ولهذا اقتصرنا في بحثنا هذا على نشاط العلماء في المدن فقط . ولكي نفهم حياة العلماء وواجباتهم وأهميتهم ، علينا ان نلقي الضوء على تاريخ المدن ووضعها السياسي والاقتصادى والاجتماعي والتعليمي في الحقبة الاخيرة من حكم المماليك والحقبة الاولى من حكم دولة بني عثمان .(1)

قامت الدولة المملوكية في مصر على أنقاض الدولة الأيوبية وبالتالي أصبحت بلاد الشام تحت سيطرتهم أيضا . ولقد كان للدولة المملوكية الطابع الديني الاسلامي كما بقي ذلك في الدولة العثمانية التي خلفتها في حكم هذه البلاد . وبهذا كان الدين خط الربط الوحيد بينهم وبين الشعوب التي حكموها . فهم لا ينتمون الى سكان بلاد الشام عنصريّا او قوميا او لغويا ، فكان الاسلام البوتقة التي انصهروا فيها مع هذه الامة ليتسنّى لهم السيطرة عليهم شعبيا بعد ان سيطروا عليهم عسكريا . ولهذا وجدت الفرصة السانحة لعلماء الدين والقائمين على أصوله ان يبرزوا في حياة المدن بروزا ظاهرا وخاصة ان كثيرا من أصحاب السلطة الحاكمة كانوا يجهلون اللغة العربية لغة القرآن والشريعة التي كوّنت الدستور الذى اتبعوه في حكمهم .

(1) استولى العثمانيون على بلاد الشام في سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م .

اما من ناحية العامة وأفراد الشعب فقد ذهبوا الى العلماء لاعطائهم المشورة وقيادتهم وتمثيلهم لدى الحكام . ولقد برز العلماء بروزا ظاهرا وذلك لعدم وجود سلطة مدنية قوية وبهذا كونوا الحلقة الضائعة التي وصلت افراد المجتمع بعضهما ببعض . وخلاصة القول ان العلماء ربطوا المجتمع المدني المفكك فهم المرشدون بالشريعة ، والكتابة والعلم ولهم الاشراف الاداري والمالي والتجاري وقد تمتعوا بسلطة قوية وخصوصا في الازمات والحروب بين المماليك انفسهم . ولم ينقصهم في مركزهم المرموق هذا سوى السلطة العسكرية التي ميزت الطبقة الحاكمة عن طبقة العلماء .

ان كلمة " عالم " تدلّ على شخص عالم بالدين وذي معرفة بأموره المتعددة ، وكانت معرفة الشريعة أساس هذه المعارف . ولهذا تسلّم " العلماء " الوظائف المختلفة ، كالقاضي ، والمفتي والمدرس والخطيب والقارئ والمؤذن الخ ... وفي هذه المجالات تحكموا بالعلم والادارة والمحاكم ، ولم تقتصر سيطرتهم على الوظائف الدينية فقط وانما تعدّتها الى الوظائف الدنيوية في المؤسسات كناظر بيمارستان الجيش وغيرها .[(١)] أما بقية العلماء حتى أولئك الذين لم يتسلّموا وظائف معيّنة في الدولة فقد ألّفوا جسما في المجتمع الاسلامي يتمتّع بالقوة والاحترام حتى من قبل الطبقة الحاكمة وذلك لعلمهم ولتأثيرهم على العامة وثقة الشعب بهم . وهناك أمثلة وشواهد في جميع مراحل العصر المملوكي تشهد بذلك ممّا اضطرّ الحكام الى الانصياع لهم وطاعتهم ارضاء

---

(١) Nicola Ziadeh, Damascus Under the Mamluks (Norman: University of Oklahoma Press, 1964), p. 113.

للشعب ، وكان للعلماء في كثير الاحيان اكبر الاثر في حثّ الناس على الذهاب الى الجهاد اكثر من الأوامر السلطانية .[١]

كانت دمشق مأوى للعلماء اكثر من غيرها من مدن بلاد الشام . فقد توافد اليها هؤلاء في العصر المملوكي من الجزيرة وبغداد وفلسطين . اذ انهم وجدوا فيها الترحيب والتشجيع والامان ومجالات الدراسة والتحصيل ، فضلا عن الانتعاش الاقتصادى وتوفير سبل العيش والفرصة لانماء رغباتهم المختلفة . وبهذا شاهدت دمشق وغيرها من المدن الشامية عصر نهضة بقدوم هؤلاء العلماء .[٢] وازدهرت دراسة الحديث الشريف ، ومما ميّز مدارس الحديث عن مدارس الفقه ان تلك كانت واحدة لكل المذاهب ، فتوافد اليها جميع العلماء ، بينما كان الفقه يدرس في مدرسة خاصة لكل مذهب من المذاهب الاربعة . وتأتي مدينة حلب في المرتبة الثانية بعد دمشق كمركز ثقافي علمي ، ثم القدس الشريف ومدن صفد والرملة وطرابلس وبيروت وغيرها .[٣]

---

(١) Gibb and Bowen, Islamic Society and the West, Vol. I, Part 2 (Oxford : Oxford University Press, 1957), p.71.

(٢) Ziadeh, Damascus, p. 83.

(٣) Ziadeh, Damascus, p. 78.

التنظيم السياسي .

أ - كانت بلاد الشام - فلسطين ، لبنان ، وسوريا - مقسمة في العصر المملوكي الى ست " نيابات " كل منها يقال لها " مملكة " لها استقلالها الذاتي يديرها نائب السلطان او الحاكم . وكان لكل مدينة وال يعيّن من قبل السلطان وله سيطرة على المدينة فهو المسؤول عن الأمن ويتبع امرته رئيس الشرطة الذى يحفظ الأمن بواسطة شيوخ الحارات وفرق الشباب . كذلك يأتمر بأمرته الموظفون من الفئات التالية :

أولا - أمراء السيف ، جامعو الضرائب والمكوس ، رؤساء البريد . وقد ألف هؤلاء المرتبة الاولى من الموظفين الرسميين . وكانت هذه المرتبة مقصورة على المماليك فقط .

ثانيا - موظفو الديوان : وهؤلاء يحفظون السجلات ، ويدقّقون الحسابات وكانت هذه الوظائف تعطى للمماليك واعيان البلد على السواء .

ثالثا - رجال الدين : وهؤلاء أشرفوا على القضاء والاسواق والتدريس في المدارس والزوايا والجوامع وادارة البيمارستانات . وكانت وظائف القضاء لأهميتها تتمتّع بادارة مركزية مستقلّة ذات امتياز خاص لا تتبع الا رأس الدولة الذى يعيّن القضاة بنفسه . وهذا ما أدّى الى وقوع الاختلاف بين القضاة والولاة وبالتالي الى طرد هذا

او ذاك منهم تبعا لمركزه وحظوته لدى السلطان . [(١)] وكان القضاة يختارون من رجال العلم والدين ، فكان عليهم تطبيق الشريعة والاجتهاد فيها بالنسبة للمذهب الذى يتبعونه فكان هناك ممثّلون لكل المذاهب ، أمّا القاضي فقد طبّق الشريعة حتى في الامور الشخصية والتجارية . أمّا بالنسبة لغير المسلمين كالمسيحيين واليهود فقد كانت مراجعهم الدينية تتولّى القضاء في أمورهم الشخصية . [(٢)]

ومن الوظائف المهمّة المتعلّقة بالقضاء وظيفة " الشهود " وهؤلاء يساعدون القضاة لتأمين العدالة ، وقد تطوّر هذا المنصب الى وظيفة " الكاتب العدل " بمفهومنا الحديث . وكان هؤلاء الشهود يعيّنون ويصرفون بادارة القاضي . والشرط الأساسي لتسلّمهم هذه الوظائف هو الايمان الحق والتفاني بخدمة الاسلام . وكان معظم هؤلاء الشهود ذوى اشغال أخرى ولكنها متعلّقة بالعلم فكان منهم بائعو الكتب ومجلّدوها وكان هؤلاء يذهبون الى المحاكم بعد الانتهاء من أعمالهم اليومية . [(٣)]

---

(١) مثال على ذلك أنظر الغزى ، <u>الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة</u> (المطبعة الاميركانية ، بيروت ، ١٩٤٥) ، ج ١ ص ١٦٢ .

(٢) I.M, Lapidus, <u>Muslim Cities in the Later Middle Ages</u> (Cambridge : Harvard University Press, 1967), p. 82.

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٦٧ .

وكان المفتي الشخص المرموق في الدائرة المدلية ، ووظيفته كانت الافتاء في المسائل الغامضة التي لا تنطبق عليها الشريعة كليّا وتحتاج الى بعض الاجتهاد . وقد تطور مركز المفتي في الدولة العثمانية فأصبح ذا شأن اكبر من منصب قاضي القضاة وأصبح مفتي الاسلام مستشارا للسلطان في كل الامور حتى السياسية منها . اما في الحالات العصيبة - كاغارة خارجية - او الفراغ السياسي - كهروب الوالي - فقد كان المفتي والقاضي والعلماء وشيوخ الحارات ، يأخذون دفة الحكم ويصرفون امور المدينة الى حين تغيير النظام او عودة الوالي .(١) وقد تسلّم العلماء هذه الوظائف المهمّة الى جانب جمع الضرائب والاشراف على المؤسسات العامة وادارة الاوقاف .

ب - المجتمع المدني .

كان مجتمع القرن العاشر مجتمعا جامدا طبقي البنيان ، شأن المجتمعات الاقطاعية في الشرق والغرب على السواء ، والمقصود بالشعب في هذا جميع عناصر السكان من غير طبقة الحكام . ويستوى في هذا التعبير الوطنيون المستوطنون . فليس الفقر او رقّة الحال في هذه الحالة مرادفا للشعب او الشعبية ، كما ان الغنى او الثروة ليسا اساسا لفصل صاحبهما عن جماهير الشعب فمياسير التجار او ارستقراطية الثروة لم يكونوا من طبقة الحكام ، وانّما هم من الشعب . كما ان طبقة المثقّفين من صميم الشعب . اما كلمة " العامة " التي

---

(١) Lapidus, <u>Muslim Cities</u>, p. 103.

انتشرت فقد دلّت في ذلك العصر على جميع الرعايا من سكان المدن باستثناء رجال القلم ، حتى ان مياسير التجار كانوا يعرفون أحيانا باسم " بياض العامّة " واما السواد الاعظم من العامة فهم دون بياض العامّة ثروة ومكانة حتى نصل الى زمرة " الحرافيش " او " الزعار " وهؤلاء أدنى مراتب الشعب من لا عمل ثابت له ، او من تعطل وانخرط في " مناسر الحرامية " وأصبح هذا الفريق عنصرا هامّا في الثورات الشعبية .[1]

هذه الثورات لم تكن للتعبير عن سخط الشعب فقط وانّما استخدم الشعب احيانا في ثورات ومؤامرات الحكام . وقداهتمّت فئتمن الامراء او اخرى بصالح الشعب وتقرّبت اليه بمختلف الوسائل ، وسبب ذلك بسيط واضح هو ان الطبقة الحاكمة طبقة اولجاركية حربية ارستقراطية ، اجنبية عن البلاد التي يحكمونها ، وان ثوراتهم ضدّ بعضهم البعض اتّجهت نحو هدف واحد ثابت وهو تحقيق النفع الذاتي الذى يعود على أشخاصهم دون غيرهم كالوصول الى الحكم او الظفر بمنصب او الحصول على مال او اقطاع ونحو ذلك ولهذا لا تدخل هذه ضمن الثورات بل هي اقرب الى الفتن منها الى الثورات . ولهذا أدرك الحكام اهمية الرأى العام الشعبي وحرصوا على كسبه أشدّ الحرص ولا سيّما في اوقات الازمات الحادة التي تعرّضوا لها .

أخذ هذا التقرّب صورا مختلفة - منها الاستعانة بالخلفاء العباسيين زمن المماليك ، ومنها التقرّب من رجال العلم ضدّ

---

(١) ابراهيم طرخان ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٠) ص ٢٦٥ .

خصومهم او العوام . فأنفقوا فيهم الاموال وبذلوا لهم الوعود . كذلك قامت طبقات الشعب بالثورات لنفسها وأهم اسباب هذه الثورات الشعبية هي المظالم المختلفة التي اقترن بها نظام الحكم والسبب الحقيقي البعيد هو الوضع الاجتماعي الذى انحدرت اليه طبقات الشعب . وكان اهم اسباب المظالم هي الغلاء والقحط والاوبئة كالطاعون مثلا .[(١)] يضاف الى ذلك اعتداءات الجنود على الناس ولا سيّما خلال الأزمات واعداد الحملات الحربية . يزاد الى ذلك تغيير العملة والتلاعب بالموازين والمكاييل بالاضافة الى تنوّع المكوس وشدّة وطأتها . وقد أدرك الحكام ان هذه مظالم بدليل الغائها وتخفيضها في اوقات الازمات تقرّبا الى الله والى الناس .[(٢)]

لقد عبّر الشعب عن سخطه بصورتين : احداهما سلمية والأخرى صاخبة . وتتمثّل الاولى في احتجاجات رجال القلم ومعارضتهم لأولي الأمر ، كامتناعهم عن الافتاء لصاحب الامر بما يهوى ويوافق مزاجه وهذا نوع من الثورة السلمية الجريئة في ذلك الوقت . ويزيد في أهميّة احتجاج هذا الفريق اعتماد السلاطين عليهم في جميع الاعمال تقريبا وكثرة استشارتهم . ويبيّن هذا بالتالي مدى ادراك السلاطين أهمية هذه الطائفة في كسب الرأى العام لتبرير اعمالهم .[(٣)] يقابل هذه الطريقة المشرفة

---

(١) محمد بن احمد ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، (القاهرة ١٩٦٣) ج ٢ ، ص ٢١ .

(٢) ألغى السلطان الغورى بعض المكوس جمعا للقلوب حوله عند اقتراب العثمانيين . يوسف الدبس ، تاريخ سوريا ايام السلاطين العثمانيين العظام ، (بيروت ١٩٠٣) ج ٤ ، مجلد ٧ ، ص ٧٢ .

(٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ص ٩٦-٩٧ .

من احتجاجات رجال القلم طريقة أخرى يتمثّل فيها النفاق بل ومناقضة الفقهاء لأنفسهم مجاملة صاحب السلطة الفعلية ،حرصا على مناصبهم.(١)

اما الصورة الثانية فهي الصورة الصاخبة وقد تمثّلت في احتجاجات العوام وخروجهم في مظاهرات للتعبير عن شعورهم وقد كانت الفرصة سانحة لهم وذلك لكثرة التنافس بين الامراء ، ولم يكن لهم مصلحة في انتصار منافس على آخر ، بل ان منافعهم وأسلابهم كانت تجيء من جانب المهزوم ولذلك تنقلوا بين الخصوم بين وقت وآخر وآزروا المنتصر ولم يترددوا البتّة في الانقلاب على صاحبهم ان اصابته الهزيمة وهذه هي القاعدة التي ساروا عليها واكثر ما استطاعوا كسبه هو نهب بيوت المنهزمين ، فضلا عمّا يأخذون من المنتصر لقاء معاونتهم له .

هكذا كان موقف العامة في المدن بالنيابات الشامية وقد زادت فيها عن بقية الانحاء وذلك لبعدها عن مركز السلطة ولهذا جاءت حاسمة في كثير من الاحيان.(٢) هذا فضلا عن ثورات العربان في المناطق الشامية المختلفة .

ج – الحالة الاقتصادية .

كانت التجارة عصب الاقتصاد في المجتمع المدني وكان روّادها

---

(١) محمد كرد علي ، خطط الشام (دمشق ١٩٢٥-١٩٢٨) ج ٢ ص ٤٠١-٤٠٣ .

(٢) ثورة العوام على نائب حلب سنة ٨٩٦ وثورة الشعب على نائب الكرك عام ٩١٢ هجرية . ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ص ٥٤ و ٧٣ .

يكوّنون فريقـين : " اهل اليسار " وأولي النعمة منهم ، وهؤلاء يأتـون في المرتبة بعد اهل الدولة مباشـرة وقد فاق بعض من هؤلاء احيانا اصحاب السـلطة ثروة وجاها فبنوا القصـور وتنعموا بالرفاهيـة الزائدة . والفريــق الثاني " الباعة " وهم متوسـطو الحال من التجار ، ويدخل هؤلاء ضمن طبقة أصـحاب الحرف . ثم يأتي " الباعـة المتجولون " .

أطلق المعاصـرون على مياسـير التجار اسم " بياض العامّـة " اى الطبقة الممتازة من العامة ، مثل تجار العنبـر وتجار الخوائص وهنـاك التجار الاجانب الذين يطلق عليهم اسم " تجار الفرنج " . ثم التجار في الاقطار الشـرقية والعربيـة ويطلق على كل فئة منهم اسم بلدهم كالمغاربـة مثلا . وللتجارة انظمة يتبعونها كغيرهم من عناصر المجتمع ، بوصايا توضـح التزاماتهم وما ينبغي عليهم التقيد به في معاملاتهم مع الناس ويخضـعون لاشـراف المحتسب وقوانين الحسـبة . فمن واجبات المحتسب ارتياد الاسواق ومحال البيع على اختلاف انواعها والنظر في الاقوات والاطعمة والكشـف عمّـا يقع من غـشّ . كذلك له الاشـراف على الموازين والمكاييل وعليه ان يدخـل الاسـواق على حين غرة ليراقب عمليات البيع والشـراء بنفسـه وله نـوّاب يسـاعدونه في اعماله هذه . (١)

ويختار المحتسب باعتناء خاص فيجب ان يكون فقيهـا ، عالمـا بالقانون ، زاهدا ، نظيف القلب ، صـبورا ، قادرا ، ذا معرفة بالحـرف المختلفة . (٢) وكان المحتسب يفرض العقاب وخاصة بعد ان الحقت الشرطة

(١) B. Ansari." Hisba ", 2nd Ed. Encyclopaedia of Islam,/Vol. III, [illegible], p. 489.

(٢) Lapidus, Muslim cities, p. 11.

بوظيفتـه . وكان عليه ان يتصـرّف كقاض في الحوادث المحلية التي لا تؤخـذ الى المحكمة وكان حكمه فيها على ضـوء الشـريعة وهذا ما اوجب الماســـه بمختلف العلوم . وبالتالي كان معظم المحتسـبين من طبقة العلماء . (١)

وكان المحتسب يتعرّض احيانا للايذاء ، فالتسـعير الجبرى الـذى يأمر به السـلطان لعلاج ازمة طارئـة لا يرضـي فريقا من الناس والضحيّة فـي هذه الحالة هو المحتسـب الذى يتعرّض هو او داره للنهـب او الحـرق وغير ذلـك .

لقد تنوّعـت اسـواق المدن الشـامية في محتوياتهـا واختصاصاتهـا فهناك سـوق لكل من انواع المأكول والملبوس من الانتاج المحلـي والمجلـوب . وتؤدى مهمة الاسـواق كذلك القيسـاريات والفنادق والوكـالات والخانـات وهـي عبارة عن ساحات ومؤسسات تقوم بجانب مهمة البيع والشـراء مهمة " النـزل " ، ومحلات الاقامة والمخازن للواردين من التجـار ، وأماكن لحفظ اموالهم وممتلكاتهم الثمينـة . (٢)

وكان لموقع المدن الشـامية ، كحلب ودمشـق والقدس والكـرك ، والموانـئ كطرابلس وبيروت وصـيدا واللاذقيـة ، ومدن الساحل الفلسـطيني ، على طرق القوافل والحج ، اهم الأثر في نشـاط وازدهار الحركة التجارية . وكان اول المسـتفيدين من هذا الوضـع هم السلاطين والتجار . فقد كان للسـلطان رسـوم متنوعـة على كل البضـائع التي تمرّ في البلاد التي تحـت

---

(١) Ziadeh, Damascus, p. 112.

(٢) ابراهـيم طرخـان ، مصـر في عصـر دولة المماليك الجراكسـة ، ص ٢٧٢ .

حكمهم ، هذا فضلا عن التجارة الخاصة بهم وذلك فيما عرف باســـم " المتجر السلطاني ".

رغم كل ذلك فان الكثير من التجار قد اثرى ثـــراء كبـــيرا حتى ان الحكام اسـتدانوا منهم في وقت الازمـات وفرضوا عليهم وعلى غيرهم الضـرائب الاضافية في اوقات الحروب بل لم يتورع السـلاطين بارسـال من ينهب المتاجر وقت الضرورة.(١) وهناك ناحية اخـرى وقع اثرهـــا المباشـر على السلاطين فضلا عن غيرهم من طبقات المجتمع المملوكـــي ، ونعني بها سـياسـة الاحتكارات التي لجأ اليها السلاطين وبعض الاشخاص. ومن العوامل التي أضرت بالتجار وغيرهم ،كذلك تغيير سـعر النقود بين وقت وآخر وظهور العملة المزيفة ممّا اضطّر الحاكم ان يعقد مجلسا من القضاة ورجال العلم للبحث عن هذه المسائل.(٢)

مثل التجار الاثرياء دور البنوك والصـيارفة ومكاتب التسليف في ايامنا هذه. وقد أولى التجار العلماء الثقة لانهم ، كرجال دين ،آمن الناس بنزاهتهم وصدقهم وولوهم أمور عائلاتهم واولادهم في غيابهم اثناء الحج او الاسـفار الاخرى. وكان لتجار التوابل اهمية كبيرة واصبحوا النخبة المميزة في ذلك العصر وخصوصا لدى سـلطات الدولة لأنهم اعطوا ايرادات اكثر للخزينة وتسلّموا تجارة العبيد التي كانت الدولة وخاصة المملوكية بحاجة لها.

---

(١) ابن اياس ،بدائع الزهور ، ج ٢ ص ٢٤٥

(٢) Lapidus, Muslim Cities P. 122.

لقد ألف تجار البهارات جماعة او نقابة لها شروط للانتساب ووكالات خارج البلاد وكانت تنقل اما بطريق القوافل من اليمن عن طريق مكة أو مع قوافل الحج ، لهذه الاسباب ازدادت اهمية هؤلاء التجار لدى السلطة الحاكمة واصبحوا بذلك طبقة " بيروقراطية " تبنا ها الامراء وقام افرادها بدورهم بادارة الاعمال الخاصة للامراء وبيع محصولهم من الاقطاعات التي كانوا يمتلكونها • كان لهذا التفاهم اهميته الخاصة فكما ان الامراء بحاجة الى التجار فقد كان هؤلاء بحاجة الى حمايتهم وخاصة خارج المدن وهكذا تداخلت هذه الطبقة مع السلطة وتأقلموا وتزاوجوا • وكان هذا الاتصال بين الحكام والتجار اهم مميزات مجتمع المدن الاسلامية •

لقد ذكرنا ان الازدهار التجارى كان احد ركائز الحكم في هذا العصر • وقد كان للموقع التجارى الاثر الفعال في ذلك اذ اصبحت منطقة بلاد الشــام مركزا للتجارة العالمية • من الشرق جاءت المنتجات الشرقيــة وعن طريق المدن الشــامية وصلت هذه التجارة الى اوروبا وبهذا اصبحت مركزا للتجار الاجانب وخاصة اهل البندقية الذين تولوا معظم النقل الخارجــي • غيران هذا الثراء اخذ في الانهيار بسبب اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وجشع السلاطين واضطراب الامن • وكان هذا الكشف بدايةا لتحول طريق التجارة الاســاسي ومؤذنا بتدهور النظام المألوف في المدن نتيجة للتدهور الاقتصادى الذى اصابها •

د - العلماء في المجتمع .

قال الغزى عن العلماء : " الحمد لله الذى جعل العلماء نجوما يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر كما يهتدى بنجوم السماء وكواكبها ، وفضلهم في الرتبة والمقام بوراثة علوم الانبياء الكرام عليه الصلاة والسلام . على ملوك الارض في محافل عساكرها ومواكبها ، ونزههم من رياض العلوم ، وحدائق الحقائق والفهوم ، في لطائف عرائبها وظرائف عجائبها ورفعهم في مناصب الفضل ومراتب الكرم بما امتطوا من ركائب الهمم ، ونجائبها فسبحانه من اله عظيم ورب متفضل كريم ، خصّ هذه الطائفة بمزيد العناية حتى علا بهم الى مراقي الزلف ومراتبها وامن عليهم بما انعم عليهم من التوفيق والهداية ثم اتا بهم فضلا منه بما نسب اليهم مما اقدرهم عليه من احتمال الكلف في افعال جوارحهم وجوانبهم ومكاسبها ." (1) لقد كان العلماء فضلا عن علمهم عصب المجتمع الاسلامي الذى جمع بين طبقاته بدون تمييز بين عنصر او لون ، وهؤلاء العلماء بخلاف الطبقة الحاكمة التي استمدّت سلطتها من القوة العسكرية ، اذ انهم استمدوا قوتهم من ايمان الناس بالمبادئ والشرائع التي كانوا القيّمين عليها . ولهذا فقد كانت وظيفة هذه المؤسسة اولا حفظ الامة ضمن اطار المبادئ والاخلاق الاسلامية ، والمحافظة على معرفة الارادة الالهية لاعطاء المجتمع الاسلامي المثل الاعلى وردعهم عن الرذيلة والانحطاط الخلقي ، وثانيا ، ايجاد مجموعة علماء ومدرسين لكي يعملوا وينيروا

---

(1) مقدمة المؤلف ج ١ ص ٣ .

الشعب المدني بمختلف اجناسه وانواعه بنور الشريعة والفقه الاسلامي .

لقد ادرك الحكام ، المماليك والعثمانيون من بعدهم اهمية هذه الطبقة فأقاموا لهم المدارس والمساجد والزوايا . وهذا شيء جديد بالنسبة لأمثالهم من الحكام الذين لا يتمتعون بأى ماض أدبي او علمي . ولكنهم وجدوا في العلم وسيلة لجلب قلوب ابناء الشعب ومؤازرتهم في المدن . لقد كان العلماء ايضا طبقة بيروقراطية ساعدت الحكام في ادارة المؤسسات الدينية والدنيوية فمثلا كان للجوامع والزوايا والمدارس والبيمارستانات نظار يشترط فيهم التقوى والاخلاق قبل اى شيء آخر.[1] وكان هؤلاء مسؤولين عند نائب السلطان مباشرة وفي يدهم مقرّرات وأوقاف هذه المؤسسات . وكان الخطاب والأئمّة يساعدون النظّار في ادارة الجوامع والمدارس ، فعلى الناظر ادارة الوقف ، والاعتناء بالعقارات التابعة له ، وللخطيب اقامة صلاة الجمعة والتدريس وللائمام امامة الصلاة ، اما الزوايا ورغم كونها مراكزا للعلم فقد كان لها ادارة مستقلّة بذاتها لها مديرها . وكان لمعظم الزوايا رباط او " خانكه " وهذه بالتالي لها شيوخها يشرفون على اتباعهم ومريديهم وهؤلاء الشيوخ يتبعون رئيس واحد هو شيخ الشيوخ الذى كان مديرا للزاوية وحلقة وصل مع السلطة التي كانت دوما تؤازرهم وذلك لمركزهم الشعبي ، اذ ان باستطاعة الشيوخ خلق جو مناوئ للسلطة المدنية . ولكن العلماء دأبوا بدورهم على صداقة الطبقة الحاكمة ارضاء للسلطان الذى

---

(١) مثلا كان على ناظر البيمارستان ان يكون مسلما ذا مبادئ رفيعة قبل ان يكون طبيبا . أنظر :
Lapidus, Muslim Cities, p. 107.

كان يغدق عليهم العطايا والهبات . وفي حال اختلافهم مع السلطة فقد كانوا احيانا يفضلون الانسحاب الى بيوتهم وعدم تعرّض مركزهم العلمي للهوان اذ انهم قدروا ان واجباتهم في خدمة العلم اهمّ من نزعاتهم السياسية . (١)

ومن أهم المراكز في طبقة العلماء كان مركز " نقيب الاشراف " وهو الذى مثل سلطة عائلية وعلمية قوية . وقد تمتّع بهذه القوة أيضا رؤساء المدارس وشيوخها . وكانت طريقة الالتحاق في المدارس غير رسمية وتطوّرت المدارس الى ان أصبحت مراكز للتجمع الاخرى وهذه كانت تتوارث في الاحياء المختلفة ، وكانت المدارس تقوم بالتدريس وانارة الطريق لتعريف الناس مبادئ الدين الصحيح والفصل بين المخاصمات المحلية وعقد عقود الزواج (٢) . لقد رأينا كيف ان المدن الشامية نمت كثيرا في القرن العاشر ، وأخذت هذه تكبر باضافة الضواحي لها وخصوصا المدن ذات الخاصة الستراتيجية العسكرية والتجارية ، فأقيمت لذلك أسواق وخانات مختلفة وكان لهذا الرخاء اثره الاجتماعي اذ دفع بالناس لايجاد اماكن للهو والتسلية فضلا عن مراكز للدراسة كالزوايا . وبما ان معظم أصحاب المال كانوا سنّي المذهب فقد قوى مذهبهم وطغى على المذهب الشيعي في بلاد الشام . (٣) وقد تكوّن ايضا كثير من الفئات في مجتمع المدن الشامية ،

---

(١) Ziadeh, Damascus, p. 124.

(٢) Lapidus, Muslim Cities, p. 112.

(٣) Lapidus, Muslim Cities, p. 119.

كالمشاغبين والزعار والحرافيش والعبيد والدراويش والاخوان . اما الصوفيون فقد تداخلوا فضلا عن الطبقات العامة في طبقات الخاصة والاعيان ، فجعلوا من انفسهم قوة لا يستهان بها في مجتمع القرن العاشر وخاصة بعد الفتح العثماني . كانت صورة التصوف غامضة في الدين الاسلامي لقرون خلت ، وصعوبة فهم تاريخها تتمثل في مشقة تتبع خط سيرها ، ومراحل تطورها ، فانه يستحيل علينا اليوم ان نطبق مفهومنا للتصوف ، على ما كان عليه في الواقع ، لقرون خلت . وهذه هي اهم مراحل التطورات كما يصفها الاستاذ تريمنغهام : المرحلة الاولى " الطاعة " حيث كان يأخذ الشيخ الـ وحلقته باقل قدر ممكن من القواعد والانظمة التي تتميز بها اماكن عزلتهم وتصوفهم ، وتتسم هذه المرحلة بتقبل دور الشيخ كمرشد لهم ورئيس .

المرحلة الثانية : " الطريقة " وهذه اشتهرت في فترة السلاجقة وتتبع قواعد معينة تقيم مدارس لتدريس هذه الطرق والانظمة ، وقد اصبحت هذه حركة صوفية منظمة عملت على ايجاد طرق جماعية لاقامة الزهد .

المرحلة الثالثة : " الطائفة " وهذه تتمثل في القرن الخامس عشر زمن اقامة الامبراطورية العثمانية والانتقال من التحالف والطاعة الى جانب النظام والقانون . وقد اصبحت الصوفية حركة شعبية . وقامت مؤسسات جديدة على نظام الطريقة وتفرعت الى جماعات ونقابات متماسكة متفرعة عن الصوفية ـ

هذه هي الصوفية كما كانت عليه في القرن العاشر الهجري .

ولكن بذور الانحطاط أخذت تدبّ في داخلها اذ ان الشيخ كان يطلب من تلميذه ان يصبح عبدا لا لله بل للانسان وأخذ نظام الصوفية يضعف وخاصة في العالم العربي اذ أخذ الجدال مجراه في طبيعة الاسلام وكانت الغلبة في النهاية للشريعة .[(١)]

ومع الزمن أصبحت المدن الشامية ملجأ لجماعات هؤلاء ، أخذوا لهم طريقة وزاوية او رباطا ، يصرف عليهم من الاوقاف وعطايا المحسنين وهبات الدولة . ثم تطوّرت هذه الجماعات الى طرق تأخذ اسم مؤسسها او شيخها وتفرّعت عنها فروع في كثير من انحاء العالم الاسلامي كالقادرية ، او الشاذلية مثلا . وبهذا تكونت نواة مشتركة في التنظيم الاجتماعي . وكان شيخ معيّن مسؤولا عن هؤلاء كوحدة ، في المركز الرئيسي .[(٢)]

لقد تداخلت الصوفية في الحياة الاجتماعية والدينية للعلماء وكذلك في حياة المدن السياسية . فكان لهم مكانة ومجلس في الاستقبالات الرسمية والاستعراضات الوطنية ، وكانوا يحملون شعارات طرقهم لتميزهم من باقي الطرق . وتأثر الامن في المدن بالصوفية وخاصة عندما تطرّفت بعض فرقها لحدّ الكفر والزندقة واللجوء الى استعمال العنف . هذا ما جعل بعض العلماء يتبرأون منهم وخاصة بعد ان قامت فرقهم بالهجوم على اماكن

---

(١) J. Spencer Trimingham, The Sufi Orders in Islam (Oxford, Clarendon Press, 1971), p. 175

(٢) Lapidus, Muslim Cities, p. 106.

شـرب الخمر وشمّ الحشيش . وقد تطاولوا الى حدّ الهجوم على الاعيـان والأمراء . وأحدثت هذه الطريقة كثيرا من البلبلة والاضطراب فكان يقاومها احيانا بعض سكان المدن بالهجوم على زواياهم . وكثيرا ما تحالف بعض العلماء مع السلطة ضدّ هذه الطبقات التي أصبحت تعرف باسم " حرافيش العامّة " . (١)

وهكذا نرى ان العلماء لم يكونوا طبقة اجتماعية مميزة غير متجانسة او متداخلة مع غيرها من الطبقات بل كانت حلقة تجمع بينها كلها . ولهذا لعبوا دور الوسطاء الذين جمعوا اطراف المجتمع بعضها مع بعض . وقد كثر كما رأينا اندماجهم مع طبقة التجار اذ ان كثيرا منهم كان يجمع بين التجارة والعلم وخاصة الوافدين منهم الى المدن مراكز العلم ، والحجاج الى مكة والمدينة ، فكانوا يحملون تجارتهم ويقيمون في البلد فترة من الزمن ينصرفون خلالها الى التحصيل العلمي والدراسة وسماع الحديث الشريف من اساتذته فيصبحون بذلك علماء يجازون للتدريس على يد العلماء المخوّل لهم اعطاؤهم الاجازة . ولقد ترك كثيرا من هؤلاء التجارة او حرفهم المختلفة وانصرفوا كليا الى التدريس واستوطنوا اما في المدن ذاتها او عادوا الى بلادهم واصبحوا علماء بها ينشرون العلم والمعرفة . (٢)

لقد كثر التزاوج ايضا بين الحكام والاعيان من العلماء

---

(١) Lapidus, Muslim Cities, p. 106.

(٢) Gibb & Bowen, Islamic Society, Vol. I, Part II, p. 134.

وهذا الاندماج كان كما رأينا ذو منفعة للطريقتين . فقد اعطى العلماء التأييد الشعبي للسلطة كما اعطت السلطة الفرصة لهؤلاء للبروز في ميدان الحكم ، فكانت النتيجة ان اصبح كثيرون من طبقة العلماء - وغالبيتهم كانت من العامّة والفقراء - في اطار الموظفين الرسميين . ورغم ان الوظائف بقيت وقفا على عائلات معينة (1) تتوارثها ، لكن الفرصة كانت مفتوحة ولو الى حدّ ما امام جميع الناس لحيازة الثروة والعلم .

وخلاصة القول ، رأينا ان العلماء تداخلوا في طبقات المجتمع المختلفة وكونوا وحدة اجتماعية تبنّت وحدات خارجها وأثرت فيها الى ان نشرت تجانسا شمل جميع الفئات في المجتمع المدني الاسلامي .

---

(١) مثلا بنو جماعة في بلاد الشام .

١ـ [illegible] .

هـ ـ العثمانيون في بلاد الشام .

تدهورت العلاقات المملوكية العثمانية منذ موءازرة السلطان قايتباى لجم ابن السلطان بايزيد العثماني ، رأحس الناس بما عرض الدولة المملوكية من ضعف فأخذوا يتطلعون الى الدولة العثمانية اذ كانت مصر مع بلاد الشام اقرب الدول الاسلامية الكبرى . ولم يكن الناس في الشام ليفرقوا اذ استولى عليهم الترك الاعاجم بعد ان حكمهم المماليك المنوعون في اجناسهم زمنا طويلا ، ما داموا كلهم غرباء عن البلاد يستعبدونهم وينالهم من قوتهم بعض الراحة . ولا فرق في الاسلام بين عربي واعجمي في الحقوق والواجبات . وأقصى ما يتطلّبه الناس سلطان عادل عاقل في الجملة لأن الأمّة كانت تغني بأسرها في سلاطينها في القرون الوسطى .

" وسلطان غشوم خير من فتنة تدوم " . (١)

تأخر السلطان سلم في الهجوم على بلاد الشام لقيام الدولة الصفوية الشيعية في طريق تقدمه فأرجأ ذلك الى ان انتصر على اسماعيل الصفوى صاحب ايران وكان قانصوه الغورى سلطان المماليك قد قدم الى حلب ليثني السلطان سليم عن عزمه فأخذ يرسل الهدايا ويهادن العثمانيين ولكن السلطان سليم كان قد صمّم على قتالهم . فجرت معركة " مرج دابق " في شمالي حلب حيث

---

(١) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٢ ، ص ٢١٦ .

انتصر العثمانيون في ٢٥ رجب ، سنة ٩٢٢ هجرية [1] الموافق ٢٤ آب ١٥١٦ ميلادية .

استسلمت حلب للسلطان سليم بعد ان استولى على ممتلكات المماليك فيها وتنازل هؤلاء عن كل ما يخصّهم في المدينة فدخلها وأقيمت خطبة الجمعة باسمه بجامع الاطروش ٢٩ رجب الموافق ٢٨ آب . وأراد سليم فرض ارادته حين دخوله حلب فتعقّب الجناة والحرامية لاثبات عزم السلطة العثمانية على العمل المجدى والأمان التام . ولقد عامل الحلبيون المماليك المنهزمين معاملة سيئة فأخذوا بذلك بثأرهم من السنوات التي كانوا فيها تحت حكمهم وأذاقوهم العذاب في الطريق حول المدينة ومنعوهم من دخول حلب . و " لقد قاسى المماليك المنهزمون على يد الحلبيين اكثر مما قاسوا على يد العثمانيين " . (١)

ترك السلطان سليم حلب الى دمشق في ١٨ شعبان ٩٢٢ ، الموافق ١٦ ايلول ١٩١٦ ، حيث اخذ المماليك الفارون يتجمعون . وقد لاقى زعار دمشق فرصة مناسبة لاشاعة الفوضى والقتل والتشريد . ومما زاد في الطين بلّة ان والي حماة " جان بردى الغزالي " وصل الى دمشق وانتخب بواسطة كبار المماليك حاكما لها . (٢) ومنع المماليك الذهاب الى مصر قبل جواب طومان باى وأعاد النظام الى المدينة مما زاد ثقة اهل دمشق به . وقد حصل الغزالي ايضا

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ص ٧٣-٧٤ .

(٢) ابن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٤) ج ٢ ص ٢٤ .

على مناصرة بدو البقاع ولم يترك السلطان سليم فرصة لمناورات الغزالي اذ عيّن حكاما من قبله في حمص وحماه قبل وصوله اليها • (١)

تخوّف الغزالي من الانكسار فأرسل عائلته الى مصر وسمح لبعض المماليك بالسفر اليها وأخذ يعدّ نفسه هو لذلك أيضا • واغتنم هذه الفرصة مشيعوا الفوضى فكثرة السرقة ، لم يراعوا بيت حاكم او قاض او كبير • وفي جملتهم قاضي الحنفية وقاضي الشافعية الذى استطاع الهرب بعد ان رشاهم • وامتدّت الفوضى الى القرى المجاورة • (٢)
بقيت دمشق خمسة ايام على هذه الحالة من الخلو السياسي وعدم وجود الدولة والقانون ، فاجتمع في هذه الفترة من العلماء عبد الغني المغربي (٣) المالكي ، وحسين الجباوى (٤) والشيخ مبارك بن عبدالله

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ١ ص ١٦٩ •

(٢) ابن طولون ، مفاكهة ، ج ٢ ص ٢٦ •

(٣) هاجر عبد الغني المغربي شمالي افريقيا الى دمشق حيث أصبح مفتي المالكية بالاضافة الى الافتاء ، فقد درس " العلوم الدينية وعلم الكلام " •
الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ١ ص ٢٥٦ •

(٤) حسين الجباوى رئيس العائلة الصوفية المشهورة وكان محترما لدى الحكام وهو الذى نظم حلة الذكر والترنيم في الجامع الاموى •
الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ١ ص ١٨٥ •

القابوني [١] من زعماء حي ميدان الحسا وقرّروا تسليم المدينة عند وصول رسول السلطان سليم الى اهل دمشق ، الى القابون . وكان هذا بدوره قد ارسل ابرهيم السمرقندى [٢] ويونس العادلي [٣] ليروا اذا كان اهل دمشق مستعدّين لذلك .

وقد حاول بعض العلماء اقناع حاكم القلعة بالاستسلام ولكنه رفض ، اما اهل دمشق فقد أرسلوا الرسل بقرارهم وهكذا دخل مصلح ميزان ، رسول السلطان ، المدينة وكتب القضاة الاربعة والشيخ عبد الغني المغربي الى السلطان سليم يعلنون له تسليم المدينة ويطلبون الامان وقد وزعوا الرجال لاعادة النظام الى المدينة في يوم الخميس ٢٩ شعبان ، ٢٩ ايلول ، دخل يونس باشا الى دمشق فاستسلم له من بقي من المماليك فأعطاهم الامان .[٤]

---

(١) كان هذا من اصل حبشي ودخل دمشق سنة ٨٩٧ / ١٤٩١ وقد عارض شرب الخمرة وحمل عليها واستقرّ في القابون حيث عمّر له قاضي عجلون زاوية .
(الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ٢٤٥-٢٤٦ .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ص ٨٤ .

(٣) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ٩١ .

(٤) Adnan Bakhit, The Ottoman Province of Damascus in the 16th Century (Unpublished Thesis, London 1972), p. 15.

دخل السلطان سليم دمشق من جهة القابون للمرة الاولى وقد خطب ولي الدين الفرفور قاضي القضاة خطبة فصيحة خاطب بها السلطان ب "المنتصر حامي الحرمين في مكه والمدينة ." [١] وقد وزعت الدراهم بعد الصلاة على الحضور وكذلك جميع الجوامع والمدارس في المدينة وضواحيها . وفي يوم الاحد عقد اجتماع قابل به القضاة الاربعة وقبلوا يده [٢] ثم تلاهم الاشراف بقيادة كمال الدين بن حمزة ، ثم زعماء بدو البقاع . وعندما جاء علي باى لتسليم القلعة أمر بالقبض عليه وعلى بطانته . اما بعض العلماء فقد رفض السلطان سليم مقابلتهم ولكنه استقبل قنصل الفرنج . [٣]

وفي اول يوم جمعة بعد اقامته في دمشق قرأ نسخة من القرآن الكريم وذهب تلك الليلة الى مدرسة الكلاسة [٤] لزيارة الشيخ الصوفي محمد البلقاني [٥] حيث كان يقيم في المدرسة . وقد أراد السلطان اعطاء الشيخ بعض المال ولكنه رفض الدراهم وطلب بدلا منها من السلطان ان يكون رؤوفا بالناس اذ كان جيشه يذيقهم ألوانا

---

(١) ابن طولون ، مفاكهة ، ج ٢ ص ٣٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٠ .

(٣) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ٤٠-٤٦ .

(٤) اقيمت مدرسة الكلاسة سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م .

(٥) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ١ ص ٨٩-٩٠ .

من العذاب . وكان الجنود العثمانيون قد تعدّوا على حريّة وحرمة السكان وبيوتهم وممتلكاتهم بدون تمييز بين صغير وكبير ، ولا عالم او صوفي او مقرئ ، وقد أخرج ابن طولون من بيته وألقيت كتبه في الشارع والتجأ من استطاع من سكان دمشق الى المدارس والجوامع . وأخلي جميع سكان المنطقة قرب المدرسة النورية حيث قرّر السلطان ان يقيم واحتلّ الجنود " عين كرسي " و " المرجه " وأقاموا الاسطبلات لحيواناتهم مكان المدارس والاماكن المحترمة .(١)

قبض السلطان سليم على الحكم بيد من حديد اذا كان بعض المماليك يثيرون الشغب والقلاقل للجنود العثمانيين الذين لجأوا الى القتل والتخريب وانتهاك الحرمات لتأمين وصولهم الى مصر . وقد كانوا يضطرون للجوء الى القلاع خوفا من تحركات الزعار واضطهادهم لهم .(٢)

بعد الانتهاء من فتح مصر عاد السلطان سليم الى دمشق وفرض اقامة بعض جنوده في بيوت اهل المدينة . اما الباقون فقد اسكنهم في البساتين حيث عاثوا فيها فسادا فارتفعت الاسعار بذلك وقاسى الناس كثيرا . وفي يوم السبت ٢٤ رمضان ٩٢٣ ،

---

(١) ابن طولون ، مفاكهة ، ج ٢ ص ٣٤ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٥ .

الموافق ١١ تشرين الاول ١٥١٧ أقام السلطان سليم الديوان وقرر صرف الشتاء في دمشق . وأثناء اقامته أخذ يلتفت الى الامور العلمية فأمر بعمارة تكية على قبر الشيخ " محي الدين ابن عربي " وألح ان يرى انتهاء البناء قبل مغادرته دمشق . وقد عين مشرفا عثمانيا للاشراف على البناء واوقف عشرة آلاف دينار تحت تصرفه . ثم زاد على ذلك بأن كبر البناء القديم وأمر بناء تكيه للصوفيين في الجامع الشمالي ونقلت العواميد الجميلة من قصر " دار السعادة " الى الجامع . وأوقف مدخول عدة قرى له . وفي يوم الجمعة ٤ محرم ٩٢٤ ، الموافق ٥ شباط ١٥١٨ ، وافق الامراء والعلماء السلطان في اقامة صلاة الجمعه وقد اغلقت الحوانيت ووزعت مبالغ كبيرة ثم غادر المدينة بعد ثلاثة ايام . وقد شجع السلطان سليم الحج الى مكه والمدينة وأمر بارسال العسكر لتأمين وصولهم . (١)

و - حالة البلاد الشامية منذ الفتح العثماني حتى آخر القرن العاشر .

لقد كان السلطان سليم نابغة الفاتحين وقد ترجم له الغزى بما يلي " كان السلطان سليم سلطانا قهارا ، ملكا جبارا ، قوى البطش كثير السفك شديد التوجه الى اهل النجدة

---

(١) ابن طولون ، مفاكهة ، ج ٢ ص ٣٧ .

والبأس ، عظيم التجسس عن اخبار الملوك والناس ، وربما غيّر ملابسه وتجسّس ليلا نهارا . وكان شديد اليقظة والتحفظ يحب مطالعة التواريخ واخبار الملوك ، وله نظم بالفارسية والرومية والعربية " (١)
حكم السلطان سليم لفترة ثماني سنين ولم يعمل بالشام الا ان اقر القديم على قدمه في اسلوب الاحكام وغنم ما تيسر من ثروة المماليك واغنياء البلاد . وزاد في الضرائب والمكوس ونصب حكاما ممن استأمنوا اليه وخانوا الدولة الاولى . (٢) وروى المؤرخون ان السلطان سليما كان يريد ان يعمل عملا نافعا للامة بأسرها . اذ كان ينوى ان يجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية بدلا من التركية فعاجلته المنية قبل اتمام هذا العمل . والغالب ان هذه الفكرة نشأت لديه يوم افتتح مصر والشام وخطب له في الحرمين الشريفين فسمّي فاتح ممالك العرب فرأى ان العرب في مملكته اصبحوا قوة لا يستهان بها ، وهم اصحاب الدين وقوم الرسول (صلعم) . " ولو وفق السلطان سليم لذلك ، لربما خلصت البلاد في القرون التالية من مشاكل عظيمة ودخلت في جملة العرب عناصر مهمّة ، ولارتقت العربية فأصبحت استطنبول موطنا لها كما كانت بغداد ودمشق وغيرها من العواصم الاسلامية " . (٣)

---

(١) الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ١ ص ٢٠٨ .

(٢) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٢ ص ٢٣١ .

(٣) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٢ ص ٢٣٠ .

بقي ارباب المقاطعات في الدولة العثمانية ، كما كانوا في دولة المماليك . وكان من قواعد الدولة العثمانية ايضا اذا فتحت البلاد ان تولي امورها الكبرى لولاتها وقضاتها والصغرى لابناء البلاد . ولم تدخل التغييرات او التحسينات في ذلك القرن لانشغالها في فتح بلاد جديدة . وكان الولاة يبتاعون مناصبهم على الاغلب بالمزاد في دار الملك ، والمزايدون في الاكثر من الساقطين في اخلاقهم . وكان لبعد المسافات وصعوبة المواصلات الاثر في انتشار الظلم وباستئثار الوالي بالسلطة ، اذ كان والي الشام اشبه بالسلطان فهو القاضي والحاكم ورغم كون السلطان سليما اهتم بالعلم والعلماء ولكن لم يخل الامر من الاجحاف بحقهم . خلف السلطان سليم ابنه السلطان سليمان القانوني ولكن الشام اصبحت في ايامه الطويلة في معزل لأنه كان مشغولا بفتوحاته فلم يهتم من امور البلاد الا ان تضرب السكة ، وتقام الخطبة باسمه ، اذ ان الشام كانت جزءا صغيرا بالنسبة لضخامة ملكه فلم ينلها من العدل والاشراف سوى الجزء اليسير اذ انه دخل الامبراطورية في ذلك العهد امم وشعوب البلقان . ولكن لا شأن لاهل الشام في كل هذا الا اظهار شعورهم بانتصارات وفتوحات السلطان .

خلف السلطان سليمان ابنه السلطان سليم الثاني الملقب " بالسكير " ولم يذكر اسمه في الشام الا على منابرها فقط لأنه كان شريبا خميرا . وقد حكم ثماني سنين ولم يزر الشام خلالها ، كما لم تشهد من والده من قبل شيئا من خطط الاصلاح والقوانين النافعة ولا شاهدت ولاتهم يرفعون الضيم عن البلاد حتى كادت الناس تسأل الموت لنفوسها . واقفرت في لبنان مدن كثيرة

ودب الخراب في البـلاد . [1]

وكان آخر سـلطان حكم البلاد في هذا القرن مراد الثالث الذى سـار على خطط اجداده في توسـيع ملكه وارسال ولاته الى البـلاد المفتوحة لاخماد ثورات اهلها بين وقت وآخر . ويمكن ارجاع سبب شـقاء النـاس في تلك الفترة الى ثلاثة اسـباب :

أولا - ظلم الوالي اذ كان عاتيا مرتشـيا .

ثانيا - ظلم الجند في حلّهم وترحالهم .

ثالثا - شـقاء البلاد بصغار الامراء من اهلها في الجبال والسـهول وكبار ارباب النفوذ في المدن . وقد تطوّرت هذه الطبقـة تطورا جديدا في عهد العثمانيـين ، فكانت اكبر فسـادا للبلاد . ولو صـلحت وسـلمت من ظلم بعضـها بعضـا لما استطاع الوالي التركـي والقائـد التركـي والقاضـي التركـي ان يعملوا في البلاد عملا مضـرا .

بدأت الدولـة العثمانية منذ حكم السـلطان سليمان بالاتجـاه الدنيوى المادى وأخذت تلغـي الشـعب بين العلماء ، وذلك بايجـاد رتب اخترعوهـا لهم وأصـبحت تشـترى هذه ايضا ولا تعطى . فزادت

---

(١) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٢ ص ٢٣٦ .

الفصل الثاني

أهميّة الكواكب في دراسة أحوال العلماء

كتب التراجم هبة فريدة من نوعها اعطاها العرب للحضارة الاسلامية . ولكن دراسة هذه التراجم لم تتطوّر بعد للحدّ الذى يفي بالتساؤل الذى يطرحه الباحث عند دراسة طبقة معيّنة من الاهلين كالموظفين والعلماء والفلاحين . وهناك كثير من العمل الجدّى الذى نحن بحاجة اليه قبل ان ننتهي الى شيء مقبول بالنسبة لتاريخ المجتمع . لا نستطيع ان ننكر ان هناك مادة قيّمة عن حياة العلماء اكثر من غيرهم من طبقات الشعب اذ انهم كما رأينا كانوا الطبقة البارزة في المجتمع وهم حافظو الحديث والتاريخ اهم العلوم عند العرب في القرون الوسطى . وقد اهتمّ بهم الدارسون والمستشرقون الذين ارادوا الوقوف على احوال الامة في قرن او عصر من العصور ولهذا فان دراسة هذه الطبقة في بلاد الشام تعطينا معلومات مهمّة وتلقي الضوء على حياة المجتمع بمختلف وجوهه . وقد أخذنا كتاب " الكواكب السائرة كأساس بنينا عليه هذه الدراسة .

اقتصر كتاب الكواكب على سير الاعلام عامّة في قرن معيّن وقد دون فيه سير مشاهير الامة ولم يقتصر على طبقة واحدة ككتاب " قضاة دمشق " مثلا ، ولم يصنف او يفرق الطبقات عن

بعضها البعض ، بل جاء جامعا لكواكب القرن من سلاطين وحكّام وولاة وقضاة ورجال علم واداريين . واذا نظرنا الى هؤلاء نستطيع ان نستخلص ان معظم هذه الفئات تنتمي الى طبقة كبيرة هي طبقة العلماء اذ ان الاقلية منهم لم يكن لهم دور فعال في الانتاج الادبي والعلمي او دور فعال في تطوّر العلم . ففي حالات قليلة جدا اقتصر رجل الحكم على دوره السياسي فقط . اما الباقون فقد كانوا علماء قبل ان يكونوا رجال ادارة او نجدهم لا ينقطعون عن الدراسة او التدريس حتى بعد ان يصبحوا في اعلى المراكز .

اما الجزء اليسير الذى لم يكن هو نفسه من رجال العلم فنراه ينخرط في هذه الناحية المهمة في ذلك العصر ، وربّما لأسباب شخصية ، فهو يوالي العلماء ويساعدهم ويهبهم الهبات ويتولّى امور بعض منهم ويصرف عليهم لكي يتفرّغوا الى العلم والدراسة .

يحتوى كتاب الكواكب السائرة ، على تراجم لأكثر من الف وأربعمائة من الاعيان رجالا ونساء في العالم الاسلامي الشرقي في القرن العاشر ، ولكنا اقتصرنا في بحثنا هذا على علماء بلاد الشام ومن استوطن فيها فقط . وهؤلاء يؤلفون الاغلبية في كتاب الغزى ، فهناك تراجم لثمانمئة وثمانين عالما من الالف والاربعمائة بينما عدد تراجم المصريين منهم مئتان وثمانية وسبعون ، واما البلاد الاسلامية الاخرى - اهمها فارس وتركيا - فلها تراجم لمئتين وسبعة واربعين من كواكبها .

والسبب الرئيسي الذى دفعني لحصر هذا البحث في علماء بلاد الشام فقط هو انه بالاضافة الى ان لهم النصيب الاكبر في كتاب الكواكب ، فان الغزى مؤلف هذا الكتاب كان منهم وقد عاصر معظمهم او نقل مباشرة عمّن عاصرهم كابن طولون مثلا ولهذا كان لهم الحظ الاوفى في كتابه .

بعد دراسة الكتاب دراسة اجمالية أخذنا مئة من هؤلاء العلماء ودرسنا تراجمهم دراسة خاصّة اكثر تدقيقا من دراسة تراجم باقي العلماء وعملنا وبيّنا احصائية لنواحي عدّة من نواحي حياتهم العامّة . وحتى تكون هذه العينة غير مجحفة بحق الدراسة ولنكوّن صورة واضحة لعلماء ذلك العصر فقد راعينا الأسس التالية عند الانتقاء :

أولا - اختير ثلاثة وثلاثون عالما من كل جزء من الاجزاء الثلاثة موزعون حسب تاريخ الوفاة لكي لا تكون الدراسة محصورة في سنوات معيّنة من القرن .

ثانيا - اختير العلماء الذين توجد عنهم معلومات وفيرة بحسب ما ورد بأجزاء الكواكب فكتب عنهم الغزى بالتفصيل لأهميتهم الخاصة في ميدان العلم والحكم وللاثر الثقافي الذى تركوه .

ثالثا — عند الاختيار راعينا الكتابة عن علماء برزوا في مختلف الميادين العلمية ومن المواطنين وقد استثني من ذلك رجال الحكم وخاصة الاغراب منهم عن الشعب في المدن الشامية .

رابعا — عمل احصائية في النواحي الآتية لكي تكون معلوماتنا وافية :
١ـ مكان وتاريخ الميلاد ، ٢ـ أسماء الاساتذة والكتب المدروسة والمدرّسة ، ٣ـ اجازة التدريس ، ٤ـ الاسفار والحج ، ٥ـ الوظائف التي مارسها العالم ، ٦ـ من ترجم له ، ٧ـ العلماء من عائلته ، ٨ـ موارد رزقه ، ٩ـ تلامذته وأولاده من العلماء ، ١٠ـ المذهب ، ١١ـ تأليف الكتب والدواوين ، ١٢ـ مشاكله مع الحكام ، ١٣ـ من ساعده من الحكام ، ١٤ـ اماكن التدريس ، ١٥ـ التصوّف ، ١٦ـ معرفته بالعلوم الغير دينية ، ١٧ـ الصفات الاخلاقية والجمال الجسماني ، ١٨ـ حياته العائلية واحواله المادية ، ١٩ـ تاريخ ومكان الدفن .

ولكن هذا لا ينفي التقصير في حق بعض الاعلام اذ ان كثيرا منهم لا يذكر عنهم سوى مكان الولادة والوفاة فقط . وقد تبدو بعض العينات ضئيلة ولكننا اثبتناها لما لها من اهمية في بعضنواحي الحياة .

ومشكلة أخرى يجب ان لا ننساها وهي اننا لا نعلم الطريقة التي انتقى بها الغزى كواكبه ، وربما كان للعامل الشخصي أثر في هذا الموضوع ، فربما أهمل من أهمل من العلماء . ولكن

نستبعد هذا على الغزي اذ انه كان عفيف اللسان ، وقد نقل الحكم على الاشخاص من غيره ممن أخذ عنهم ، وهذا ربّما لتقواه وعدم رغبته في ذمّ الناس او لعدم كفاية الدليل لديه عن ناحية او للاثنين معا . [١] وعلى ضوء هذه الدراسة قسمنا الفصل الثالث الى الاقسام المبيّنة فيه .

---

(١) Tarif Khalidi, "Islamic Biographical Dictionaries, A Preliminary Assessment," The Muslim World, LXIII, No. 1, (1973).

الفصـــل الثالـــــث

القســم الأول – أصــول العلماء وتحركهــم الاجتماعـــي

كان العلماء في البدء طبقة محدودة مميّزة تتوارث العلـم وأوقافـه ، وتعتبر من اعيان البلـد ، وتأتي مع طبقة التجار في المركـز الاجتماعـــي الثاني في بلاد الشـام اذ كان الدين والاقتصـاد عصـبي الحيـــاة فـي القرن العاشـر . ولكن مع الزمن تطـوّرت هذه الطبقة وأصـبح يدخلهـــا غربـاء عن عائلات معيّنـة وخاصـّة بعد الفتح العثماني وتطـوّر طبقـــــة الدراويش التي كانت تتسـم بالفقـر والاصـل الوضـيع . وكانت فيما مضى تقـوم عائلات اما بالتوارث او بقيام عائلـة ارسـتقراطية معيّنـــة على أثـــر تغـيّر في الحياة السياســية تخدم الوطن بخدمة اصـحاب السـلطة ومعظـم الاحيان تموت مع السـلطة التي أوجدتها . فكانوا يتوارثون امامـة جامـع مـا ، او القضـاء ، او نظـارة الجامع ، او ادارة الاوقاف . وباستطاعتنا تشـبيه هذه العائـلات بـ Noblesse de Robe [(١)] اذ كانوا يترقون في سـلم المناصـب وتصـبح بعض الوظائـف وقفا عليهـم كبني جماعـة اذ يقال بشـأن احد افراد العائلـة " بعد خدمتـــــه فـــي

---

(١) Kamal Salibi, "The Ibn Jamāʿa Family of Muslim Jurists", Studia Islamica, Vol. 9-10 (1958-59), p. 107.

مدارس دمشق نقل الى القدس حيث عيّن خطيبا واماما في الجامع الاقصى ، وبعده بقيت امامة الجامع وقفا احتكارا على عائلته الى اوائل القرن السادس عشر [(١)] ويعلّق الغزى على هذه العائلة بقوله " وبمجيء الاتراك اضمحلّ المركز السياسي لبنو جماعة " . [(٢)]

ومن النموذج المأخوذ نجد ان هذه الطبقة تؤلف اثنتي عشرة بالمئة من العلماء وهؤلاء تفرّغوا وانصرفوا الى العلم كليّا وورثوا اوقافا تدرّ عليهم أموالا يؤمّنون بها حياتهم اليومية ويصرفون على دراستهم منها . ويأتي بعد ذلك الفريق الآخر الذى ترقّى بجدّه ونشاطه وهو اصلا من عائلة متواضعة ولم يرث العلم . ويشرح الغزى احيانا الطرق التي انتمى بها العالم الى هذه الطبقة فمنهم من كان تاجرا او عاملا ثم اعتكف وأخذ العلم كطريقة لعيشه اذ يقول بهذا المعنى " كان يصنع الابر بحانوت كائنة له ثم اشتغل بالعلم " . [(٣)]

وقد اهتم الغزى بنسب العلماء ومكان وتاريخ مولدهم . فنجد انه في احدى وتسعين من الحالات يذكر مكان المولد وفي خمس

---

(١) *Ibid*, p. 109.

(٢) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ١ ص ٢٣٢ .

(٣) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ١ ص ١١٧ .

منها يذكر ان هذا العالم او ذاك لم يكن اصلا من مدينة مولده وانما وفد اليها هو او اهله من قبله ، وربما لأن آباء هؤلاء كانوا يشغلون مناصب في الدولة في المدن الرئيسية ، وهكذا نرى ان اثنين وثلاثين منهم جاؤوا من دمشق وتسعة عشر من حلب وتسعة من القدس وخمسة من حماه وأربعة من طرابلس واثنين لكل من غزة وصفد والخليل وواحدا من بودين وواحد من ايجة . اما الباقي فهم من دخل دمشق ومنهم من كان اصلا بدويا او مغربيا واستوطنها بها .

وان كان الغزي قد اهتم بمكان المولد ، لكنه يتجاهل تاريخ الميلاد ويهمله ، فنراه يذكر تاريخ مولد ستة وثلاثين بالمئة فقط من العلماء وهذا عائد لعدم ثقته في التاريخ اذ انه لا يعطي تاريخ المولد فقط ، وانما يقول من المرجح او على حدّ قول فلان ، ويورد اكثر من تاريخ واحد الى آخر ذلك من كلمات التشكك .

لقد رأينا ان معظم العلماء كانوا من المدن الكبرى ، لكن لم تكن هذه كقاعدة لا استثناء لها . فاننا نرى هناك اسماء قرى ومدن نائية . فلنأخذ بعض العلماء من هؤلاء نرى كيف توصّلوا الى الاستقرار بمدينة ما فمثلا ابو علي الوديني ولد بودين في بلاد الروم ولبس الخرقة ودخل الخلوة على يد والده ثم دخل بلاد الشام ومصر وحج وزار بيت المقدس وتولى بيمارستان النورى بدمشق ثم نظر حلب وتولى كتابة اوقاف الحرمين بها ، وأراد ان

يتركهـا فيما بعد ولكن اركان الدولـة ابرموا له ان لا يتركهـا لرضـى اهل الحرمـين الشـريفين فبقيت في يده الى ان مات.(١)

اما مسـعود المغربي فقد دخل دمشـق وأخذ يعيـش مـن كسـب يمينـه في ضـرب الابواب المغربيـة ثم صـار للناس به اعتقـــاد لفضـــله وصـلاحه وكانت بركتـه مطلوبـة .(٢)

وقد كانت الوصـاية " patronage " هي اهم الدوافع التي جعلت او دفعت بالعلماء الى ان يصـبحوا عما هم عليه اذ قـــام كثير من العلماء الكبـار برعاية تلامذته من الذين توسـموا فيهم النجابـــة والمسـتقبل العلمي . وقد اخذوا على عاتقهـم تدريبهم وتحضـيرهم لأن يتسـلموا هذا المركز او ذاك وكانت شـهادتهم بهم لدى الحكام بمثابـــة تأشـيرة المرور الى الطبقة المرموقـة . ولم تقتصـر هذه العناية والوصـاية على رجال الدين لبعضـهم بعض فقط وانما أخذها عنهم رجـال الادارة والسياسـة فنرى ان هذا الوالي يتولّـى امور فئة من العلمـاء ويمدّهـــم بكل ما يسـاعدهم في حياتهـم المادية والاداريـة . وبالنســبة الـى الاسـاتذة " جـب وبويـن " كانت الوصـاية هي اكبر عامل في تـدرّج العلمـاء في طبقتهـم .(٣) وهذه الوصـاية كانت من قبـل علمـــــاء

---

(١) الغزى ، الكواكب السـائرة ، ج ٢ ص ٢١٤ .

(٢) الغزى ، المصدر نفسـه ، ج ٣ ص ٢٠٦ .

(٣) Gibb & Bowen, Islamic Society, Vol. I Part I, p. 177.

المقاطعات او الولاة وكثيرا من الاحيان اوجدوا لأوصيائهم مدارس لكي يظهروا بها ويقوموا بالتدريس فيها .

وكان لمركز ووظيفة الاباء الاثر في التطور والتقلّب الاجتماعي للعلماء ، اذ نجد ان سبعة عشر بالمئة من نماذج دراستنا كان آباؤهم من العلماء ذوى المركز العالي كقاضي القضاة او شيخ الاسلام وهناك ثلاثة عشر بالمئة كان آباؤهم اقل اهمية . كذلك يورد الغزى عند عشرين بالمئة منهم وظيفة الاب والجد والاقارب واصل الزوجة ، الى آخره من المعلومات العائلية .

اما بالنسبة للاوقاف ... ا فنجد ان تسعة بالمئة من علمائنا اوقفوا تركوا اوقافا منها ما كان املاكا او مكتبات او كتب وان اربعة بالمئة منهم تسلّموا اوقافا من عائلاتهم وان هؤلاء كانوا يديرون شؤونها ويصرفون منها . اما بقية العلماء الذين لم يرثوا هذا المركز او لم يساعدهم اهل السلطة فانهم توصلوا الى ذلك بانتاجهم الادبي ونشر الكتب وذيوع صيتهم وقد وجدنا ان سبعة وعشرين بالمئة من العلماء كانوا من علماء المراتب الرئيسية الذين حظوا برضى السلطان ، ولهذا السبب كثرت الدسائس وقامت المنافسة بين هذا او ذاك للحؤول دون توصلهم الى مركز مرموق .

وقد كان من حسن حظ العلماء الكبار انهم في حال تغيير

السلطة لسياستها تجاهم بسبب تغيير الاشخاص او لدافع ما ان كان هؤلاء اصحاب ثروة بحيث يستطيعون العيش ، اما الصغار منهم فقد قاسوا الأمرّين وهناك سبعة بالمئة من الحالات يذكر الغزى وضع العالم المادى قبل وفاته ، فهم اربعة من هؤلاء السبعة ماتوا عن دنيا طائلة ومال وفير والثلاثة الباقون ماتوا فقراء معدمين .

ومن الملاحظ ايضا ان معظم العلماء الذين دخلوا سلك التدريس والوظائف الدينية بقوا بها ما عدا اربعة بالمئة ، فقد اعتزلوا كليّا . ومن الفريق الاول قسم غير من اهتمام الى آخر ولكنه بقي في السلك . وعلينا هنا ان نلقي الضوء على دور الوراثة في سلك العلماء ، فقد وصف " جب وبوين " بقولهما " ان الطبقة العليا العليا من العلماء هي ارستقراطية ذات امتياز ووراثة ومع الزمن اصبحت موسسة العلماء في محنة اذ اننا نرى ان انتشار العلم لم يكن ليجاري انتشار الوظائف في اواخر القرن بعد توسع الامبراطورية العثمانية ، فلهذا كثرت الهبات والاوقاف وأوجدت المدارس المختلفة لتحضير موظفين للدولة . وقد كان لهذه الهبات والمساعدات المالية اكبر الاثر في ادخال مختلف العناصر الى طبقة العلماء واتاحة الفرصة لهم . وبهذا ايضا كثر الاغراب في هذه الموسسة وكان هؤلاء بالاصل لا يتحلّون بالصفات الاساسية للعلماء واهمها الوراثة والنسب والماضي العائلي العلمي الزاهر . ولهذا فقد تطوّرت هذه الطبقة وتميّزت بصفات جديدة في القرن الجديد" .(١)

---

(١) Gibb & Bowen, Islamic Society, Vol. I Part II, page 63.

لقد اشتهر علماء بلاد الشام بكثرة اسفارهم طلبا للعلم في معظم الاحيان او لسماع الحديث على عالم مشهور اذ نرى ان خمسة وخمسين بالمئة منهم سافروا من مكان الى آخر لهذا القصد ومن دراسة الاماكن التي قصدها هؤلاء العلماء لطلب العلم نستطيع ان نستنتج اشهر مراكز العلم المختلفة وكان اهمها : القاهرة ، مكة والمدينة ، القدس ، دمشق ، حلب ، ثم بروسا ، ادرنه ، واسطنبول بعد الفتح العثماني . وكثيرا من هؤلاء العلماء توفّوا وهم في اسفارهم خارج مواطنهم فدفنوا بها وأقيمت صلاة الغائب في جوامع مدنهم او في المدن الكبيرة التي اشتهروا بها . ومن الملاحظ انه هنا بعكس تاريخ الولادة فان تاريخ الوفاة يذكر عند واحد وثمانين بالمئة منهم ، اما مكان الدفن فيذكر عند سبعة وسبعين بالمئة منهم . وقد اعتمد الغزى في معظم تراجمه على ابن طولون فنجد انه نقل عنه لثمانية وثلاثين بالمئة منهم . والباقي اعتمد اما على ترجمة العالم لنفسه او على تلامذته وابنائه الذين ترجموا له .

القسم الثاني - البيئة الدينية للعلماء

ان لفظة عالم هي مأخوذة من كلمة " علم " وهي تدلّ على اصحاب العلم او من كان له المام بمبادىء الدين

وأصوله ويؤخذ برأيه في الشريعة والقانون وباقي العلوم الدينية والعلوم الدنيوية احيانا . وكثيرا منهم من كانوا ذوى مقدرة خارقة في الادراك واظهار العجائب اذ كانوا من اولياء الله تعالى . فكان الناس يحترمونهم ويتبركون بهم . ويذكر في تراجم هؤلاء العلماء ان ثلاثة وثلاثين بالمئة منهم كانوا من اصحاب الخوارق والنظر الى المستقبل او التكلّم مع الانبياء وتفسير الاحلام الى غير ذلك . وقد زاد مركز هؤلاء اهميّة بعد الفتح العثماني اذ انهم كانوا يمثلون الدين الاسلامي اولا وهم من العرب قوم الرسول وخاصة اولئك اصحاب الحسب والنسب الذين ينتمون الى سلالة النبي ونرى ان هذه الصفة يذكرها الغزى ويبرزها لدى وجودها عند هذا العالم او ذلك ، وبذلك نستنتج ان هؤلاء كانوا يؤلفون تسعة بالمئة من النماذج المدروسة .

كذلك يهتمّ الغزى بذكر المذهب ويميّز عالما عن آخر بانتمائه الى هذا المذهب او ذاك . هذه الصفة المميزة انقرضت اهميتها مع الزمن حتى تكاد لا تذكر عند ذكر العالم في ايامنا الحاضرة . ان ذكر المذهب يرد عند تراجم اثنين وسبعين عالما من العلماء المئة . من هذه الاحصائية نستنتج ان المذهب الشافعي كان المذهب السائد في بلاد الشام في القرن العاشر وهؤلاء يؤلفون اثنين وخمسين عالما من العلماء الاثنين والسبعين اى بنسبة ٧١ ½ ٪ . ويأتي بعد ذلك المذهب الحنفي وهؤلاء كانوا اربعة عشر عالما من الاثنين والسبعين

المذكورين اى بنسبة ١٩٪ . ولكن هذا المذهب أخذ بالانتشار بصورة أقوى في العهد العثماني ، فنجد انه في عدة حالات من تراجم علماء الجزء الثالث من الكواكب يخبرنا المؤلف ان كثيرا من العلماء الشافعيين اصبحوا حنفيي المذهب . ويمكننا تعليل هذا التغيير الى كون المذهب الحنفي هو مذهب السلالة العثمانية وان كثيرا من الوظائف اصبحت في عهدهم وقفا على افراد هذا المذهب [1] فربّما قاد طموح بعض علمائنا الى ذلك ، ويأتي بعد المذهبين الأولين المذهب المالكي وكان هناك أربعة مالكيون اى بنسبة ٥ ٪ ومعظمهم كانوا مهاجرين من شمالي افريقيه الذين استوطنوا في بلاد الشام . وكان للمذهب الحنبلي اثنين من الاثنين والسبعين عالما فقط ، اى بنسبة ٢ ¾ ٪ .

وكان التصوّف احدى الظواهر الدينية في ذلك العصر ولكن أقليّة من العلماء هم الذين تبعوا طريقة صوفية معيّنة وهؤلاء يؤلفون ثمانية وعشرين بالمئة فقط . وينصرف الغزى احيانا الى شرح كيف أصبح هؤلاء صوفيين او الطريقة التي أخذوها . فنرى انه في سبع عشرة حالة من الثمانية والعشرين يذكر انهم من الصوفيين ويهمل ذكر الخرق التي لبسوها . اما الباقون فكانوا موزعين على المذاهب كالآتي : همداني اثنان ، قادري اثنان ، شاذلي اثنان ،

---

(١) مثلا وظيفة مفتي الاسلام . الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ١٢-١٤ .

وواحد اردبيلي وواحد حمادى وواحد ارسلاني وواحد دسوقي وواحد خلواتي . وأحيانا يذكر على يد من أخذوا الطريقة كقوله " حصل عنده طريقة التصوّف حتى اجازه بالارشاد وانقطع عن الناس واستقلّ بنفسه . (١)

لقد اعتقد الناس بالعلماء الاولياء وآمنوا بهم لكونهم من رجال الله تعالى ولقيامهم بكثير من الخوارق او لرؤية النبي والتنبؤ بأحداث مهمة . وقد عقّ كثير من العلماء عن الحياة الدنيا وأخذوا في الزهد والابتعاد عن الناس وفي احدى الحالات يذكر ان بعض العلماء نفروا من العثمانيين لتغييرهم المألوف المتبع وايجاد حلول جديدة كقوله " مات قهرا على دين الاسلام لتغيير العثمانيين الاحكام " . (٢)

لقد تميّز العلماء ايضا عن بعضهم البعض بالصفات الحميدة اذ كان الايمان والمعرفة والتودّد الى الناس ولين الجانب والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والتقشّف والزهد والعفّة والتعمّق بالعلم والعدل بالقضاء والزكاة والزهد في اموال الغير ، والعطاء والاحسان والسخاء ومكارم الاخلاق ، ولطف المعشر من الصفات المستحبة والتي حازت تقدير الناس واعجاب الغزى عند كتابته تراجم وسير كواكبه . وبنظره ان العالم المثالي هو من اتصف بهذه الصفات اذ نرى انه يورد ذكر بعض هذه الصفات او معظمها في تراجمه لثمانية وأربعين عالما من امته . كذلك يعيب على العلماء ضعفهم من الناحية

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ١١٩ .

(٢) الغزى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ص ١٩١ .

الاخلاقيــة مهما برعــوا في علمهــم ، فالعالــم يجب ان يتنزه عن كــل شــيء يجعل منه انسانا دنيويا قبل ان يكون رجل دين ، فكان لبــس الثياب الفاخرة ، والثراء الفاحش واكل الحشيشــة الخبيثــة وشــــرب ام الخبائث الخمر ، والرفض والتشــيع ومعاشــرة العوام ، ودخل الــقهــوات ومجالســة اهل البطالات ومعاشــرة الغلمان ، واللهــو وشتيمة الاشراف [1] وغيرها من الصــفات المرذولة التي لا يستسيغها الغزي عند كواكبـــــه مطلقـــا .

وكان للصــفات الجســمانية والجمال نصــيب كبــير من اهتمام الغزي عند ترجمتــه للعلماء ، اذ نراه يطري المديــح بهذه الناحيــة عند اثنين وعشــرين عالما بالمئة ومنهم من تحلى بالوقار والطــول والطلة البهيــة التي كانت تضــفي على العالم مركزا اجتماعيــا اكبــر اذ كــان يجلب نظر المســتمعين والتلاميذ ويعطيه ميزة خاصّة بــه .

القســم الثالث - المدارس ودور العلماء في الحيــاة الثقافيـــــــة

كان التعليم الديني هو اساس كل العلوم في القرن العاشــر

---

(١) كقوله " قطعت رأسه بسبب انه سب شريفا وسب جده " . الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ص ٢١٠ .

في البلاد الاسلامية وهذا ما ميّز جهاز التعلم عن غيره من اجهزة المجتمع الاخرى . وكان رجال الدين وليس رجال الادارة هم القيمين على اماكن العلم . فقد كان " الكتّاب " او مدارس تعلم القرآن هي الاماكن التي ذهب اليها طلبة العلم ليتلقوا تعليمهم الابتدائي فيها ، وبهذا كان حفظ القرآن هو اساس العلوم الدينية والدنيوية ... ولهذا فقد كانت هناك وحدة تعليمية ابتدائية في كل انحاء العالم الاسلامي في آسيا وافريقيه واوروبا .

كانت التربية العامة والمبادئ الدينية والاخلاقية تعطى للاطفال في البيت . وكان الاغنياء منهم يتلقون تعلم قراءة القرآن على يد شيخ يأتي الى البيت . اما الفقراء فقد ذهبوا الى بيوت الشيوخ او " الكتاب " لتعلم قراءة القرآن . هذا النوع من المدارس لا يزال موجودا الى يومنا هذا في بعض المدن الاسلامية . وكانت هذه " الكتاتيب " تلحق بالجوامع ويصرف عليها من الاوقاف . وقد كان شيوخ تدريس القرآن اقل اهمية من باقي العلماء ، ولكن الشعب بالاجمال احبهم وقدّرهم .

اما الدراسة العليا فقد كانت في المدارس التي تتبع الجوامع وكانت هذه تزيد اهميتها بحجمها والاساتذة الذين يدرسون بها ، والاوقاف الموقوفة لها . ويذكر الغزى اسماء المدارس التي ذهب اليها العلماء عند خمسة وأربعين عالما من علمائه وكانت هذه أهمها : المدرسة الصلاحية بالقدس ، مدرسة الجامع الاموى بدمشق والشامية

البرانية والعمرية والسليمية والصالحية بدمشق والعصرونيه بحلب ،
وميدان الحصا بدمشق ايضا ، وجامع العطار بطرابلس ، والتكمه الخضرونيه ،
مدرسة ابي عمر والخانقه السميعانيه ، والمدرسة القبيريه ومسجد شرقي
ودار الحديث الاشرفية والرباط الناصري ، والعادلية الصغرى والمدرسة
التقوية بدمشق ايضا ، ومدرسة الشريحة والجوهرية والعزيزية بحلب .
وكان هناك مدارس يدرس فيها مذهبان وبهذا يكون لها ايوانان
وكان العدد التقريبي لمدارس دمشق في القرن السادس عشر حوالي ثمانين
مدرسة .(١)

اما النعيمي فانه يذكر اكثر من ذلك فهو يورد انه كان
للشافعيه حوالي ستين مدرسة وللحنفية حوالي واحد وخمسين مدرسة
وللحنابلة احدى عشر مدرسة وللمالكيه اربعة مدارس ، وثلاثة مدارس للطب .
هذا فضلا عن دور القرآن ودور الحديث والخوانق ، والرباطات ، والزوايا
والترب ، والمساجد والجوامع .(٢)

لقد رأينا ان العلوم الدينية كانت المسيطرة على هذه المدارس

---

(١) Ernest, Deiz, "Masjid", 1st Ed. Encyclopedia of Islam/ Vol. III, art. [illegible], p. 382.

(٢) انظر الجدول " ج " للمدارس حسب كتاب النعيمي الدارس في تاريخ المدارس من الفتح الاسلامي حتى الثلث الاول من القرن العاشر .

واما باقي العلوم كالحساب والفلك وغيرها فقد درسها المهتمون بها لوحدهم او على يد عالم آخر وليس ضمن نطاق المنهاج المدرسي وقد حدّ تعصب بعض العلماء من تطور العلوم المدنية في ذلك الزمن . وشاركت الدولة العثمانية بادئ الامر بذلك لأنها لم تسمح بطباعة الكتب او استيراد الكتب المطبوعة مما ضيق انتشار العلوم بسرعة (١). وهذا اعتمدت المدارس عامة على تدريس الفقه والشريعة والعلوم الدينية . وهناك بعض الحوادث تظهر اضطهاد العلماء ذوى الافكار الجديدة الذين حاولوا ادخال جديدهم على النمط المألوف المتبع في عدة نواحي علمية او اجتماعية . (٢)

كان لهذه المدارس اوقاف يصرف منها عليها وعلى التلاميذ ايضا وقد اقام التلاميذ في اماكن قريبة من المدرسة في بيوت يشرف عليها الناظر وقد قسموا الى اروقة مختلفة كل بحسب بلده وكانت الدراسة في هذه المدارس تتوقف على نوع العمل الذى يريد التلميذ ان يتخذه فاذا اراد ان يصبح قاضيا او مفتيا فانه يتوقّف بعد اتمام دراسته في المدرسة . ولم يكن هناك منهاج معيّن للتعليم في المدارس ولا عمر معيّن لقبول التلاميذ بها . وكان شرط الالتحاق بالمدارس المقدرة على قراءة القرآن ، وشهادة بحسن السلوك من الشيخ مدرس القرآن ، وكانت السنوات الاولى تصرف في الدراسة على يد استاذ او شيخ عادى . ولكنه بعد ذلك يتلقى العلم

---

(١) Gibb & Bowen, Islamic Society, Vol. I, Part II, p. 148.

ويحضر محاضرات وشروح شيخ مرموق بارز في دراسة معيّنة من الدراسات الدينية التي يرى التعمّق بها . وكانت هذه المواضيع هي الفقه والشريعة والمنطق . او كان يلتحق بشيخ لاحد الطرق الصوفية . ومن اراد من هؤلاء ان يصبح استاذا فقد كانوا يقدمون نوعا من امتحان صغير يعطى لهم بعده الاجازة في تدريس هذه المادة او هذا الكتاب ، ويذكر الغزى اسماء الاساتذة والمواضيع التي درسها العلماء عند اربعة وستين بالمئة منهم وهذه نسبة لا يستهان بها وتظهر لنا ان هذه الناحية كانت مهمة جدا في مركز العالم العلمي وخصوصا انه يفتخر بذكر اسماء العلماء الذين درس عليهم فمن اجيز على يد عالم مشهور يكون له اهمية اكبر من اولئك الذين اجيزوا على يد عالم اقل اهمية .

وكان المدرس يتمتع بالحرية المطلقة في التدريس فلم يكن هناك منهاج محدد على الاستاذ ان يتبعه كالدراسة في ايامنا الحاضرة . وكانت معظم المواد تحضر وتكتب بواسطة الاستاذ . ولزيادة الاستفادة كانت هذه الدروس تتكرّر بواسطة معيد . وكان للمستمعين الحق في طرح الاسئلة خلال الدرس او بعده ، ومناقشة الاستاذ . هذه المناقشات والاسئلة اعطت العالم صيتا علميا حسنا اذ ان هذه الدروس كانت تحضر من قبل فريق من المريدين والمستمعين المدنيين . وكان للمدرسة التي التحق بها العالم اهمية كبرى كمركز المدرس وكذلك الكتب التي درسها . وهذا

بيان بأهم الكتب المدرسة في ذلك العصر وهي تحوى كتبا في اصول العربية والنحو والفقه والشريعة والمشروحات والتصانيف والايضاحات .

احياء علوم الدين	لابي حامد الغزالي
الارشاد في الفقه	لابن المقرى
الالفية والفية الحديث	لمحمد ابن عراق
الفية ابن مالك في النحو	لابن مالك
الانسي الجليل	لابن اليمني الحليمي
البهجة	لابن الوردى
تائية ابن حبيب	لعبد القادر ابن حبيب
تاريخ الحمصي	لشهاب الدين الحمصي
تاريخ العلائي	لبدر الدين العلائي
تصريف الغزى	للغزى
تصريف البيضاوى	لجلال الدين البيضاوى
الحكم	لابن عطالله
الخزريه في علم العروض	للخزرجي الاندلسي
سنن ابن ماجه	لابن ماجة
السيرة	لابن هشام
الشاطبيه في القرآن والتجويد	للشاطبي وعليها تعليقات
	لابن الحاجب وللنووى

شـرح العـروض	لزكريـا الانصـاري
الشمسـيه	للـقطب الـرازي
العقائـد	لسعد الدين التفتازاني
شـرح المنهاج	لاحمد ابن حجر الهيثمي
شرح القطر والقواعد لابن هشام	لنجم الدين الغزي
المواقـف	للسيد الشـريف
الشـفا	للقاضي عيـاض
الشـقائق النعمانية	لطاشي كپـري زاده
صـحيح البخـاري	للبخاري
صـحيح مسـلم	لمسـلم
مسـند الشـافعي	لحسين الـبغوي
المنازل البدرية في المنازل الوصيه	بدر الدين الغزي
المطول	لسعد الدين التفتزاني
مفاكهـة الخلان	لابن طولون
المنهـاج	للنـووي
المنهاج في الاصـول	للبيضاوي
وفيات الاعيـان	لابن خلكـان .

هذه الكتب مذكورة عند تراجم تسـعة وسـتين بالمئة من العلماء وكما ذكرنا فقد كان العالـم يجـيز تلميذه عندما يقتنـع بمعرفتـه للموضـوع فكانت الاجازة بمثابة شـهادة تخوله تدريس الكتاب او [illegible] او روايـة

الحديث اذ يقول الغزى بهذا الموضوع " اجازه والبسه الطاقية واسمعه الحديث "[١] . وفي مكان آخر يقول " كتب له الشيخ اجازة مطولة اذن له فيها بالافتاء والتدريس "[٢] . وقال أيضا " اجاز له البرهان الرهاوى رواية الحديث المسلسل بالاولية " .[٣]

ويذكر الغزى موضوع اعطاء الاجازة ومن اجاز العالم فلان من العلماء المرموقين فمن التسعة والستين المذكورة اسماء الكتب التي درسوها هناك ذكر اعطاء اجازة لواحد وثلاثين عالما من هؤلاء . وكان ارباب السياسة يرسلون احيانا براءات تدريس كقوله " اعطي تدريس الصلاحية فما وصلت براءته الا وهو مريض "[٤] . ويقول أيضا " انعم عليه الملك بالتدريس في الصلاحية ، ثم جمع الى جانب ذلك خطابة المسجد الاقصى " .[٥]

وقد كان للصلات العائلية الاهمية الكبرى في التعيينات في المدارس فكانوا كما رأينا يتوارثون هذه الوظائف ، وكان من الطبيعي ان يخفق البعض في القيام بمهامهم خير قيام ، فكثر بذلك

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ١ ص ٢١ .

(٢) الغزى ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ١١٦ .

(٣) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ٢١٧ .

(٤) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ١ ص ٢٥١ .

(٥) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ١ ص ٢٢ .

الطرد من الوظيفة اما لاخفاقهم من الناحية العلمية او الاخلاقية او لزوال سلطانهم العائلي او سلطان من آزرهم وولاهم .

لقد كان العالم المثالي هو العالم الذى يبقى تلميذا الى آخر ايامه ، ويجوب مراكز العلم طلبا للمعرفة . وكان حيثما حلّ او رحل هؤلاء العلماء يرحب بهم في بيوت علماء تلك المدن او في مدارسها . وهذا ما جعل هذه الطبقة متماسكة مترابطة مع بعضها البعض ويذكر الغزى ان خمسة وخمسين بالمئة من هؤلاء العلماء سافروا من مكان الى آخر طلبا للعلم . وكان القيام بفريضة الحج شيئا مرغوبا وخصوصا تكراره فمنهم من حج خمس او ست مرات او جاور في مكة والمدينة وبقي هناك لفترة من الزمن ويذكر الغزى ان سبعة واربعين بالمئة من نموذجنا قاموا بفريضة الحج وكثيرا منهم لعدّة مرات .

لم يكن التعلم في بلاد الشام محصورا في المدن الكبيرة فقط ، وانما امتد وانتشر في بقية انحاء النيابات بالاضافة الى دمشق وحلب كان هنالك مدارس الجوامع المهمة في معظم المدن الكبيرة والصغيرة . ويذكر الغزى المدارس التي ذهب اليها خمسة واربعون بالمئة من علمائه ، وما هي المدن التي تنقلوا بينها . من هذه الدراسة نرى ان هناك ميزة تميّز علماء بلاد الشام عن غيرهم وهي كثرة الاسفار في طلب العلم . وكان الازهر اهم الاماكن التي قصدوها لهذه الغاية ، اذ كان رواق الشوام في هذا الجامع من اهم

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ١ ، ص ٢٣٢ .

الاروقة . (١) وتأتي دمشق بعد القاهرة في الاهمية العلمية ثم حلب ثم الحرمان الشريفان ومدينة القدس .(١) اما النجف فقد تمتع بمركز علمي كبير عند علماء الشيعة الذين توافدوا اليه من بلاد العجم وسوريا والهند . (٢)

وكانت اهمية المدارس تزداد بنسبة الاوقاف الموقوفة للصرف عليها من المحسنين الذين اوقفوا الاملاك والمباني لهذا الغرض . وكان لكل رواق او مدرسة شهرة خاصة لنوع معيّن من العلوم كالآداب والفقه ومنها ما جمع بينها كلها . ويمكننا تشبيه ذلك بجامعات اوروبا في ذلك العصر كشهرة باريس باللاهوت وسالرنو في ايطاليا للطب . (٣)

وكان شرط التدريس في بعض المدارس ان يكون المدرّس من مذهب معيّن كقوله " وعرض عليه التدريس بالسلطانية بحلب فأعرض عنه لاضطلاعه على بابها من اشتراط المذهب الشافعي للمدرس".(٤)

لاستكمال البحث راجع

(١) Lapidus, Muslim Cities, p. 109.

(٢) Gibb & Bowen, Islamic Society, Vol. I, Part 2, p. 162.

(٣) سعيد عاشور ، جامعات اوروبا في العصور الوسطى (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٩) ص ٧٩ .

(٤) الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ٣٣ .

وكان من اهم مراكز العلم في دمشق رواق الجامع الاموى ومنه محراب الحنفية والمشهد الشرقي وشباك الكلاسة والزاوية الغزالية والشامية البرانية والعمرية وباب زميلة وقبه النسر بدمشق وجامع السقيفه بباب توما ومدرسة الصادرية ومدرسة ابي عمر بسفح قاسيون ومسجد ارسلان والتكيه السليميه ، ويتبعها مدارس حلب والقدس والرملة وصفد وبعلبك وبيروت وصيدا وطرابلس .(١)

لقد اشتهر علماء ذلك العصر بكثرة التأليف والانتاج الفكري . ونستطيع ان نعلل ذلك لاسباب عدة اهمها :

أولا - اهتمام السلاطين بالعلماء واحترامهم وتقديرهم . فأقاموا لهم المدارس والزوايا وشجعوا العلم وكافأوا العلماء . ولما فتح السلطان سليم البلاد نراه يتبع خطوات سلاطين المماليك اذ يذكر الغزى بهذا المعنى عن احد العلماء انه " كان جيد الخطاب ولما دخل السلطان سليم حلب سمعه وحظى عنده واحبه السلطان محبة عظيمة لاعراضه عن المال " .(٢) وهذا ما شجع العلماء الاستمرار بالاهتمام بالعلم .

---

(١) انظر فهرس اسماء الاماكن في الكواكب ج ٣ تحت المدارس ، صفحة ٣٠٦-٣٠٩ . ومسجد ٣٠٦-٣١٠ ، وتكيه ص ٣٩٣-٣٩٤ ، وجامع ٣٩٤-٣٩٥ .

(٢) الغزى ، الكواكب السائرة ،ج ١ ص ٣٠٥ .

ثانيا - خلو الادب التركي من التراث الديني والفكري ولهذا كثر طلب الكتب العربية التي تهتم بهذه المواضيع وكثرت بذلك كتب الشروحات والتصانيف والتفسيرات . فنرى ان كثيرا من مؤلفات ذلك القرن تعتني بهذه النواحي .[1]

ثالثا - اوقف الكثيرون من العلماء عن القيام بالمسؤوليات والوظائف في العهد العثماني . فمثلا نعلم ان سنة ٩٣٠ هجرية كانت آخر سنة يتولى القضاء في حلب احد من ابناء العرب .[2] فكان من الطبيعي ان يتفرغ وينصرف هؤلاء الى التأليف وكتابة الكتب والاهتمام بالعلم فقط .

رابعا - احدث الاتراك تغييرات في سلك الوظائف بالغاء بعضها فكان ان نفر وزهد في الادارة الكثير من العلماء وانصرفوا الى العلم فقط كقوله " ابطلت الدولة العثمانية وظيفة الشاهد "[3] . وكقوله " زهد في الادارة لما احدثته الدولة من تغييرات فانصرف الى التدريس والتأليف " .[4]

---

(١) راجع فهرس الكتب في الجزء الثالث من الكواكب .

(٢) الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ٢٦ .

(٣) الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ص ١٢ .

(٤) الغزي ، المصدر نفسه ، ج ٣ ص ٣٩ .

خامسا - الاستقرار السياسي الذى أوجدته الدولة الحديثة فقد قامت الدولة والجند بوظيفة الحفاظ على الامن ، فزالت بذلك زعامة العلماء والاعيان من السيطرة على المدينة وقيادة وحفظ الامن بها كما كان لهم في العصر المملوكي . وبهذا الافول السياسي تفرّغ العلماء وانصرفوا الى الحصيد الادبي .

سادسا - مركز بلاد الشام الجغرافي جعل منها حلقة وصل بين بلاد الدولة القديمة وبلاد الامبراطورية العثمانية ، فكانت المنطقة قريبة من مراكز العلم القديمة كالأزهر والحرمين الشريفين والعراق والآن زادت تركيا وبلاد المشرق .

سابعا - اهتمام علماء بلاد الشام بالاسفار والتردّد على مراكز العلم وعندما أصبحت هذه الاماكن تحت سيطرة امبراطورية واحدة سهل بذلك التنقل بينها ، وهذا ما وسع افقهم الفكرى وكثرت بذلك الكتابات عن الرحلات والذكريات والمشاهد المقتبسة .

لهذه الاسباب اشتهر هذا القرن بوفرة الانتاج وذيوع صيت علمائه في ارجاء امبراطورية بني عثمان . ومن دراسة النماذج نستنتج ان ثمانية وعشرين بالمئة من علمائنا تركوا كتبا مؤلفة او دواوين . وكانت أهمّ موضوعات أشعارهم ما يتعلّق بالدين كالموشحات والتصانيف ومنها ما كتب لمدح سلطان او رجل دولة

او احد الاعيان ، اذ كانت لهم اياد بيضاء في ميدان العلم ، او لعالم من العلماء المرموقين والاكثار من المدح والاطراء لعلمه وأدبه او ترجمة لحياته .

لم تقتصر معلومات العلماء على العلوم الدينية فقط وانّما تعدّوها الى العلوم الدنيوية . ويذكر هذا عند أربعة عشر بالمئة من العلماء . لقد كانت اللغة والبيان والمنطق والعروض اهم العلوم وذلك لأن اللغة وسيلة لدراسة العلوم الدينية المعقدة . وجاء الطب بعد هذه العلوم من حيث الاهمية وذلك لقلّة الاطباء في ذلك العصر ولأهمية هذا العلم الانساني الذى كانت البلاد بأمس الحاجة اليه حيث الامراض متفشية ومنتشرة وقد حظي بموءازرة السلاطين معظم من الم بهذا العلم كقوله عن احدهم : " كان مشهورا وحاذقا في صناعة الطب وسافر الى الروم فأعطي رآسة الطب بدمشق ثم اقتصر في علاجه على الحكام والاكابر وجمع كتبا نفيسة " .[1] وكقوله أيضا " اشتهر بالطب وكان يطبب ويعطي الدواء من دون مقابل " .[2] هذا لا يعني ان الطب كان على المستوى العلمي الذى هو عليه الآن اذ كان الاطباء كثيرا ما يداوون الامر ان بكتابة الاحجبة او تلاوة آيات قرآنية .

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ٤٤ .

(٢) الغزى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ص ٢١٠ .

كذلك ألم بعض العلماء بالحساب والعلوم الرياضية والفلك وعلم الميقات كقوله بهذا المعنى " كان له يد طولى في علم الحساب وعلم الغيب بحيث لم يكن له نظير " .[1] وقد جمع العلماء كثيرا من العلوم المتعددة في آن واحد كقوله " اشتغل في علم الفرائض والحساب والميقات والهندسة والموسيقى والطب والفلك " .[2] وكان بعض العلماء وهم قلّة يلمّون بالكيمياء ويتعاطون العمل بها . ولكنا نستخلص في كتاب الغزى ان هذا العلم لم يكن مستحبا او مرغوبا به في ذلك العصر ويستنتج ذلك من اقواله فمثلا يقول بهذا الموضوع " لكنه اتهم بالكيمياء وصلب " .[3] وفي مكان آخر يقول " يقال عنه كناز وكيماوى ومطالبي " .[4] وقد كره هذا العلم لا لكونه يعطي الدواء الشافي وانما لأنه يستعمل في صنع الخمر والمسكرات . وكانت القهوة مرذولة ايضا ومحرما تناولها .

دخلت القهوة بلاد الشام من اليمن على يد عالم بالكيمياء . ويقول الغزى في ترجمة له " وهو مبتكر القهوة المتخذة من البن

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ص ٩٣ .

(٢) الغزى ، " " ، ج ٣ ص ٣٢ .

(٣) الغزى ، " " ، ج ١ ص ١٩٣ .

(٤) الغزى ، " " ، ج ١ ص ٢٠٢ .

من اليمن وقد وجد فيها تجفيفا للدماغ واجتلابا للسهر وتنشيطا ". [(١)]
وقد كان تحريم القهوة احد المواضيع التي دارت المناقشة حولها بين العلماء والحكام لفترة طويلة الى ان سمح بشربها فيما بعد . [(٢)]

وكانت الموسيقى احدى المعارف المرغوب فيها لدى الناس وكان من يلمّ بها يتمتّع بشعبية تميّزهم عن غيرهم من العلماء وذلك لندرة المشتغلين بها اذ كان على من اراد اتقانها التنقّل الى اماكن تعليمها كقوله " انفرد باتقان علم الموسيقى ورحل بسببه الى الشرق ثم الى الروم ". [(٣)] اما علم التاريخ فقد كان اكثر انتشارا عند العلماء من غيره من العلوم وقد أخذوا ألقابا لممارستهم كتابة التاريخ كقوله " مؤرخ مدينة دمشق ". [(٤)] او اشتهروا بمعرفة نوادر كثيرة في التاريخ . وكثيرا ما استدعي هؤلاء المؤرخون الى اسطنبول ليكتبوا تراجم العائلة العثمانية او ليدوّنوا فتوحات السلاطين . انكب علماء بلاد الشام وخاصة اولئك الذين تدخلوا واشتغلوا بالادارة على دراسة اللغات الاخرى كالفارسية والتركية وذلك لحاجة العثمانيين الى مترجمين للتفاهم مع اهل البلاد

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ١١٣ .

(٢) سيأتي ذكر ذلك فيما بعد .

(٣) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ١ ص ١٩٤ .

(٤) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ٢٤٥ .

وقد حظي هؤلاء بمركز مرموق بالادارة وذلك لأن معظم الاداريين الرئيسيين كانوا يجهلون اللغة العربية .

القسم الرابع - موارد الرزق عند العلماء .

ولكي نبني فكرة واضحة عن وضع العلماء الاقتصادى ، لا بدّ لنا من القاء الضوء على طرق عيشهم وموارد رزقهم . فقد اختلفت وتنوّعت مصادر المال وكمياتها عند العلماء ، فمنهم من عاش فقيرا معدما ، ومنهم من جنى او ورث ثروة طائلة ، ومنهم من أمن حياته بالهبات من الافراد والمؤسسات او الدولة ، ومنهم من اشتغل وقام بأعمال عادية لكسب قوته اليومي . وهؤلاء ألفوا قسما كبيرا من العلماء ، مما يعطينا فكرة ان العطايا والاوقاف لم تكن لتكفي ذلك ممّا اضطرّ اغلبيتهم ان يعملوا اعمالا متفرّقة لكسب قوتهم وقوت عائلاتهم .

ولا يذكر الغزى موارد الرزق عند ترجمته لكل عالم وانّما يعطينا ذلك لسبعة وعشرين بالمئة من النماذج تحت الدراسة . ويمكننا تقسيم هذه الموارد الى عدة اقسام ، ونورد ما ذكر الغزى بشأنها .

أولا - المصادر الموروثة .

وهذه تؤلف مجموعة ما ورثه بعض العلماء ، اما أولا من الاموال الخاصة بأحد افراد العائلة اذ يقول الغزى بهذا الشأن

" كان ابوه من اهل الثروة والنعمة " [١] وفي مكان آخر يقول " كان والده ذا اقطاع في بيروت فعاش عيشة هنية واشتغل بالفروسية ولعب الشطرنج والنرد وتنعّم بالمأكولات والملبوسات وانشاء الاقطاع ". [٢] كذلك يقول في مكان آخر " ثم ورث عن اخيه مالا فقلبه في التجارة والاجازة فأثرى وكثر ماله ". [٣] من هذه الجملة الاخيرة نستخلص ان بعض العلماء كانوا يتقاضون المال على اجازتهم لمن أخذ العلم على يدهم . او ثانيا من الارقاف . وهذه اما عامّة موقوفة على المدرسة او المدينة ، او على علم من العلوم او لشيخ او طريقة ما اذ يقول الغزى بهذا الشأن " لم يتناول من اوقاف دمشق شيئا حتى ارسل اليه من مال الشاميه البرانيه " [٤] وكقوله ايضا " أخذت اوقافه من يده " [٥] . وهذا ما يدلّنا على ان الحق باستعمال الاوقاف كان يؤخذ من عالم او آخر ربّما لعمل مناف قام به لو لمشاحنة مع غيره واستغلاله الحق كقوله " وضع يده على انظار المدارس التي حول الجوامع فقطع جوامكه ومرتزقته

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ١ ص ١١٩ .

(٢) الغزى ، " " ، ج ٣ ص ١٦١ .

(٣) الغزى ، " " ، ج ٣ ص ٦٧ .

(٤) الغزى ، " " ، ج ٢ ص ١٧ .

(٥) الغزى ، " " ، ج ٢ ص ٥٥ .

وبعض مؤدنيـــه " . (١)

هذا عن الاوقاف العامّـة . أما الاوقاف الخاصة المحبوســة على عائلات بعض العلماء ، والتي ورثوها عن ابائهـم واجدادهــم ، اذا كانت هناك عائلات من العلماء يتوارثون العلم والوظيفة والاوقــاف كعائلــة الغزى نفســه مثلا (٢) وعند ترجمتــه لاحد العلمــاء بهــذا الموضــوع قال " اعطي اوقاف اجداده ليتدبر امرها " . (٣)

ثانيا - المصــادر الحكوميــة والهبات الخاصّــة .

لقد ذكرنا في الســابق عن اهتمــام الســلاطين بالعلم واعتنائهم بــه وتشــجيعه . كذلك اهتمّ به رجال الادارة وبعض الاعيان ايضــا ، فكان من الطبيعي ان تكثر الهبــات والمعطيات وقد ألفت هذه الجزء الكبــير من موارد العلمــاء والمدارس . وممّا يمــيّز المدارس في ذلك الوقــت ان هذه الهبات ورغــم كون بعضــها من رجال الدولة الاّ انها اتخذت صــفة شــخصية ، ورغم تقارب المؤسسات الدينيــة مع الدولــة وانما لم تكــــن الاخــيرة هي المســؤولة عن المدارس ماديّــا ، وانما القســم الكبـــــير

---

(١) الغزى ، الكواكب الســائرة ، ج ٣ ص ٢٢ .

(٢) المقدمــة في الجزء الاول من الكواكب ص " ق " .

(٣) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ٤٣ .

من هذه المسؤولية كان يلقى على عاتق المحسنين من سلاطين وولاة واعيان البلاد ووجهاء التجار ، وكبار العلماء . ويذكر الغزى المصادر التي نحن بصددها فيقول " رتب له عشرين عثمانيا من الجوالي لكل يوم ولم يتناول منها لبركته وصلاحه ولما في بيت المال من المظالم ". [1] من هذه الجملة نستنتج ان العالم العفيف النفس كان مثالا للعالم المشكور المرغوب به . وفي مكان آخر يقول " رتب له ولأولاده من الخزينة ثلاثين دينارا كل سنة ". [2] وكقوله ايضا " كانت تفد اليه الهدايا والنذر للتبرك ". [3] ومثالا لعفة وقدسية الرسالة عند بعض العلماء رفضهم لاستخدام علمهم لمنفعة مادية ، يقول الغزى " بعث اليه الباشا نائب دمشق بمال فردّه اليه وقال : غيرى احوج مني ولم يقبل ان يكون تدريسه بمقابل ". [4] وقد اكثر السلاطين اعطاء الهبات دون ذكر سبب ، كذلك كقوله " انعم عليه السلطان سليمان بخمسين عثمانيا من الجزية ". [5]

وكان في حالات المرض او العجز الصحي يقوم بعض رجالات

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ١ ص ٢٩ .

(٢) الغزى ، " " ، ج ٣ ص ١٧ .

(٣) الغزى ، " " ، ج ٣ ص ٤٨ .

(٤) الغزى ، " " ، ج ١ ص ١٠٢ .

(٥) الغزى ، " " ، ج ٢ ص ٢٣٤ .

الدولـة بالتعويض على العلماء العاجزين كقولـه " ثم عميت عيناه فعجـز عن اقامة التدريس فعيّن له السلطان سليم في كل يوم ستين درهما بطريق التقاعد وتوطن في مدينة بروسا " . (١) وفي حال الكبر والشيخوخة كان يصيب بعضهم ما يكفل لزم حياتهم كقولـه " تقاعد بخمسين عثمانيا وشيئا من الحنطة " . (٢)

وكان بعض الاعيان يعطفون على العلماء المحتاجين ويقدمون لهم ما يلزمهم وخاصة المساكين والمجاذيب كقولـه " كان مجذوبا يأخذ قوته من ارباب البضائع فلا يعارضونه ويتبركون بـه " . (٣) لقد ذكرنا سابقا كيف ان كثيرا من العلماء عفّوا عن اموال الدولـة وزهدوا بها لسبب او لآخر . ولكن كان هناك فريق من العلماء يصرف الاموال على المشروعات العامة التي يستفيد منها ابناء الشعب بدلا من أخذها والاستفادة بها شخصيا كقولـه بهذا المعنى " هرع اليه الناس بأموال وغيرها ، فكان يصرفها في وجوه الخير بعمل بعض الركايا واصلاح الطرقات " . (٤)

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ص ١١٣ .

(٢) الغزى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ص ٢٠٥ .

(٣) الغزى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ص ١٥٧ .

(٤) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ٣٩ .

ثالثا - الموارد الأخـــرى .

لا يذكر الغزى كيف جاءت او توفّـرت الثروة في جميع الحـالات ولهذا لا نسـتطيع ان نـتحرى سـببها عند كل من العلمـاء اذ نـــراه يقول " كان صاحب مال عظيم وحشـمه وافـره " ، (١) او " كان ذكيا فقيها متـمولا " (٢) ، او كان " فقيرا من الدنيا " (٣) او " عــزل عن القضـاء وصار يستعطي " . (٤) وهذا دليل واضح على نزاهـــة بعض العلماء رغـم تسـلّمهم المناصـب العليا كالقضـاء مثلا .

لقد ذكرنـا سـابقا ان معظم العلماء اعتمدوا على اعمالهــم المختلفـة لكسـب رزقهـم وفي كثير من الاحيـان كان بعضـهم يصـرف على المدرسـة ومريديه من امواله الخاصـة . وهذا بيان بالاعمـــال المختلفـة التي قام بها هؤلاء العلمـاء في القرن العاشـر كمـا وردت في الاجزاء الثلاثـة من كتاب الغزى ، الكواكب السـائرة :

١- الاشـتغال بالتجارة والزراعـة .

٢- " كان يكتسـب من عصر البذر بحانوت " . (٥)

---

(١) (٢) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ٣٩ و ٦٤ .

(٣) (٤) الغزى ، " " ، ج ٣ ص ١٧ و ٤٩ .

(٥) الغزى ، " " ، ج ١ ص ١٩٩ .

٣- نسج القطن وحل القماش والسكر والصابون .

٤- تقاضي التجارة والاعتناء بالنحل .

٥- " كان خشابا من فضلاء الشافعية " .(١)

٦- كان يتسبّب بالشهادة " وبلغ من صناعة الشهادة غاية الدهاء ، وكان فقيرا فحصلت له ثروة " .(٢)

٧- كان خياطا يحبونه ويتردّدون على حانوته ويتبركون بخياطته .(٣)

٨- عمل الحبر المليح .

٩- الاشتغال بالابواب وشراء الكتب بدمشق .

١٠- " كان يصنع الابر بحانوت كائن له ثم اشتغل بالعلم " .(٤)

١١- نسج الصوف .

١٢- عمل الاسفيذاج والبرقون والزنجبار وبيع سائر انواع العطارة .

١٣- التوقيع على الوثائق .

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ١ ص ٢٥١ .

(٢) الغزى ، " " ، ج ٣ ص ١٨٢ .

(٣) الغزى ، " " ، ج ٢ ص ١٧٨ .

(٤) الغزى ، " " ، ج ١ ص ٢٤١ .

١٤- " كان يتسبب بدكان له بباب البريد ويقرئ الناس بها " .[1]

١٥- تعليم القراءة للاطفال .

١٦- يصنع الازرار وكان له ذوق صوفي .

١٧- بيع المياه المستخرجة .

١٨- كتابة المصاحف وبيعها بأثمان غالية .

١٩- تصفيح الحديد حتى يصير فولاذا .

٢٠- ضرب الابواب المغربية جدرانا لبساتين دمشق .

هذه هي اهم الاعمال التي قام بها علماء القرن العاشر خارج نطاق العلم ونرى ان هذه تعطينا فكرة واضحة عن موارد الرزق الذى تسبب فيها اهل الشام في ذلك العصر . وكان كما رأينا التجارة اهمها وتأتي بعد ذلك الصناعات اليدوية المختلفة ، ثم الكتابة وخاصة المصاحف ثم الزراعة وتربية الحيوانات وكان اهمها تربية النحل وجني العسل .

القسم الخامس - الوظائف وكيفية توليها .

لم يكن هناك حدّ فاصل بين العلوم الدينية والدنيوية كما

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ص ٥١ .

رأينا ، ولم تكن المدارس أصلا تعتني بالعلم المدنية ، بل كانت العلوم الدينية هي اساس الدراسة للمناصب الادارية في الدولة ، ولهذا تسلّم علماء الدين الوظائف الحكومية وأصبحوا الطبقة المميّزة ، لها مركزها الديني والاداري والاجتماعي . واذا ألقينا الضوء على كتاب الكواكب نستنتج من التراجم المختلفة ان العلماء قاموا بالوظائف الآتية : فمنهم من كان : قاضيا للقضاة ، او قاضيا ، او نائبا لقاضي ، نائبا للحاكم ، ناظرا الجيش ، كاتب السر ، وكيل بيت المال ، شاهدا ، احد العدول ، ناظر القلعة ، خفيرا ، ولي الاوقاف ، ناظر اوقاف الحرمين الشريفين ، ولي نظر الجوالي ، كاتب الوظائف والتواقيع ، كافل مدينة حماه ، حافظ دفتر بيت المال والديوان ، احد المباشرين ، مفتي التخت السلطاني ، ينكجريا ، مفتش ، رئيس المفتشين ، ناظر النظار ، متولي الجامع ، رئيس مذهب ، نقيب الاشراف ، نقيب الفقهاء ، شيخ الطائفة ، ولي فراشه السليمية ، امير الحج الشامي ، رئيس مجلس حلقة الذكر ، اماما ، مدرسا ، قارئا ، مؤذنا ، خطيبا ، فقيها ، متكلما ، شيخ الشيوخ ، شيخ الكتابة ، شيخ الزاوية ، الدارادار ، ناسخا ، مؤدب الاطفال ، مؤدب السلطان ، صاحب الحجاب مؤقت بالجامع ، صاحب الرواية ، خطيب الخطباء ، ولي المحراب ، شيخ الاسلام ، شيخ الخانقاه بالقدس ، امام لنائب دمشق ، شيخ القراء ، رئيس مدرسة .(١)

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ١ ، ٢ ، ٣ .

يذكر الغزى الوظائف التي مارسها العلماء عند تراجمه لأربعة وستين بالمئة من العلماء تحت الدراسة . وهنا نورد الوظائف التي قام بها هؤلاء حسب عددهم بالنسبة لكل من الوظائف . وقد جاءت هذه الاحصائية كالآتي بالنسبة للاربعة وستين عالما المذكورة وظائفهم . فكان منهم ثلاثة عشر مدرسا ، واحد عشر خطيبا ، وثمانية مفتين ، وستة قضاة ، وخمسة وعاظ وأربعة نظار أوقاف ، وأربعة أئمة ، وثلاثة قضاة القضاة ، واثنان مؤدبا اطفال ، واما الوظائف الباقية التي كان لها واحد من النماذج فهي : شيخ ، شاهد ، مقرئ ، مؤذن ، شيخ الاسلام ، مفتي دار العدل ، ناظر البيمارستان .

لا نستطيع في هذا البحث دراسة جميع الوظائف المذكورة وتطورها دراسة واسعة ولكننا سنلقي الضوء على بعض منها لأهميتها في تداخلها مع الدولة والناحية الادارية فاذا أخذنا وظيفة قاضي القضاة فاننا نرى ان هذه الوظيفة تغيّرت مع الاستقرار العثماني وتطوّرت وأصبحت وقفا على المذهب الحنفي فقط .(١) وقد دخل كل السنجق الشامي تحت سلطة قاضي القضاة الذى كانت مسؤولياته عديدة اذ بالاضافة الى وظيفته القضائية كان يساعد في جمع الضرائب ومراقبة الاسعار منعا للغش ، وحسابات الاوقاف ومراقبة ذبح الحيوانات حسب الشريعة ، ومن صلاحياته ايضا مراقبة الاخلاق العامة

---

(١) Bakhit, The Ottoman Province, p. 132.

والنظر في امور الموظفين غير المسلمين وبالاختصار لم يكن هناك حد فاصل بين صلاحيات اداري الدولة اذ كانت تتداخل في امور ضمن اطار مسؤولية القاضي والحاكم والموظفين الرسميين .[1]

وكان قبل مجيء السلطان سليم اربعة قضاة كل لأحد المذاهب الاربعة يتمتعون بصلاحيات ومقامات متساوية . ولكن الفاتح العثماني عيّن حنفيا كقاض للقضاة واعطى الآخرين مراكز أقل اهمية ، وكان وكلاء النيابة السنيون اعلى درجة في المحاكم . لقد قامت عدة محاكم في المدن الكبرى فاذا أخذنا مدينة دمشق نرى ان اهم محاكمها كانت ، محكمة باب الافندى ، المحكمة الكبرى ، ميدان الحساب ، قناة المعوني ، الصالحية ، القسمة العسكرية . وقد نقلت المحكمة الكبرى من مدرسة الى مدرسة اخرى[2] بينما كانت محكمة باب الافندى تقام في دار العدل المملوكي وليس من المؤكد ان كل المحاكم كانت تقام في دار العدل المملوكي ولا في المدارس اذ كان لبعضها ابنية خاصة ويذكر ان حاكما اقام المحكمة في بيته لوقت قصير[3] . وكان يساعد قاضي القضاة مترجم يعمل خارج مكتب القاضي ولكن في نفس البناء . كذلك شغل البناء

---

(1) Ernst, Diez, "Masjid", 1st ed. Encyclopaedia of Islam, Vol. III, p.381.

(٢) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ص ٢١٧ .

(٣) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ص ١٤١ .

ايضا نواب القضـاة الذين قاموا بالاستماع الى بعض المشـاكل لكل حسـب مذهبه ، والحقوا بالمحكمة ، وكان نائب القاضـي الحنفي يعيّن مـــن الاتراك فقط . اما نواب بقية المذاهب فلا مانع من كونهـم مواطنـــين وقد تسـلّم الشـافعيون هذه المناصب في كثير من الاحيان ، وهـذا ما يفسـرّ ان معظم سـكان مقاطعة دمشق كانوا من الشـافعيين . (١) وهناك حالات قليلة عـيّن فيها احد المالكيـين . (٢)

كانت هذه هي الطريقة السائدة في معظم المدن ولكن نائـب القاضـي كان يعيّن من قبل العثمانيـين في مدينة عجلـون والسـلط وميدان بـبيروت . وفي بيان عن قاضـي القضـاة حدّدت وظيفـة النائـب بما يلـي : " يجب ان يحاكم بالنسبة لمذهبه وان يفحص ويقرّر عقـــود الزواج وحجج الممتلكات ان كانت قائمة ، وعليه تسـجيل جميع الحـــالات والحكـم بالعدل واعطاء بيان بكل ما يفعـل الى قاضـي القضـــاة وان يأخذ امضـاءه بالموافقـة . (٣)

لقد تمتّـع الشـاهد اثناء الحكم المملوكي بمركز اهمّ واكبـــر وقد كان له مكتب منفرد ويترك له الامر في التقـرير النهائي باسـتعمال

---

(١) الغزى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ص ١٣ .

(٢) الغزى ، " " ، ج ٣ ص ١٦١ .

(٣) Bakhit, The Ottoman Province, p. 139.

حكمته في الامور الصغيرة ، وقد تضاءلت اهمية هذه الوظيفة واصبح الشاهد في العهد العثماني يقوم بعمل كاتب عادي . [١] وتسمّي بعض المصادر الشاهد " العدل " او " الموقع " وكان التعيين مفتوحا للمدارس الاربع وقد بقيت في يد اهل البلد الى اواخر القرن العاشر . وقد كانت كل حادثة تقرر بثمانية عشر شاهدا منهم واحد رئيسي في كل محكمة فكان احد المعاونين يقدم الحالة والثاني يدرسها بينما يعمل الرئيس لمراجعة الامور وصحتها العدلية . ولهذا فقد وجب لهذه الوظيفة اناس بمقدرة فائقة وهذه تسمّى " صناعة التوريق " . ولقد اثبتت كشوفات المحاكم ان كثيرا من الحكام كانوا يتقنون لغتين بينما عيّن كثير من القضاة الاتراك مترجمين للقيام بهذه الوظائف . [٢] وكان هناك موظفون آخرون في المحاكم يعرفون " بالمديرين " وكان هؤلاء يأخذون الغياب فيها .

اما القضاة فكانوا يتقاضون اجورا معيّنة في العصر المملوكي اما في العصر العثماني فقد كانوا يتلقون دراهم حسب نوع المعاملة فمنها ما يعطى للقاضي ، ومنها ما يعطى للكاتب وقد تنكّر بعض العلماء لنوع هذه العطايا والهبات حتى ان بعض القضاة استقال . [٣]

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ٨٨ .

(٢) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ٩٣ .

(٣) الغزى ، " " ، ج ٢ ص ١١٦ .

وهناك امثلة عدة في تراجم العلماء عن رشوة القضاة [١] ، وهذا لا يعني ان الغالبية كانت كذلك ، فتاريخ القضاء في دمشق حافل بأمثلة المترفعين خلقيا والمستقيمين [٢] وكثيرا ما كان السلطان يتدخل بأمر هؤلاء القضاة ولهذا كثيرا ما دأب السلاطين عن تعيين العلماء في الوظائف القضائية وذلك لثقته بهم وبنزاهتهم [٣] ، وفي حال ثبوت رشوة القضاة كانوا ينالون العقاب الصارم وتصدر فرمانات سلطانية بهذا الشأن . [٤] وكان للسلطة العسكرية محاكمها الخاصة بها وفي حال ارتكاب جريمة كبرى من قبلهم فقد كان يرسل مندوب خاص يحقّق بذلك من اسطنبول . ولقد تعرّض كثير من القضاة الى امور اجتماعية اضطرتهم ان يقفوا ويجانبهم العلماء امام النواب ورجال الادارة فمثلا منعهم الحاكم من بناء بركة في المسجد الاموى [٥] وحوادث اخرى تدل على قوتهم وتحكمهم . زيادة الى ذلك مواجهتهم

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ٢٢-٢٤ .

(٢) ابن طولون ، قضاة دمشق ، ص ٣١٨ .

(٣) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ٣٣ .

(٤) Uriel Heyd, Ottoman Documents on Palestine, 1552-1615. (Oxford: Oxford University Press, [illegible] 1960), pp. 54-55.

(٥) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ١٣ .

مشـاكل اجتماعيـة متعـددة ، وسـأتطرق لهذا الموضـوع فيما بعد .

وظيفـة المفتي

رغم اعتماد الاتراك المذهب الحنفي المذهب الرئيسـي للدولة ، لكنه كان لبقية المذاهب ممثلوها . اما المفتي الحنفي فكان هو الموكـل لاعطاء الفتاوى ، وبعد اقامة المدرسـة السـليمانية في دمشق فقد عـيّن المفتي الحنفـي للاشـراف عليها وأصـبح يعيّن من الاتراك . ولكـن كان هناك بعض التعيينات من غير العثمانيـين اذ كان معظم العثمانيـين لا يعرفون اكثر من بعض الاصطلاحات العربيـة ولهذا اتكلوا على العلمـاء المحليـين . (١) ويعيّن لكل مفتي كاتب وهذا يقدم له المطالـب كتابـة . وكان المفتي يقوم بعمل آخر احيانا فمنهـم من كانوا مدرسين ونظارا وهذا ما اعطاهم مدخولا زائـدا . (٢)

لم يكن على المفتي الشـافعي اخذ موافقة المفتي الحنفي لاحكامـه ولكنه جرت العادة على ذلك ومقابل اجر احيانا . (٣) وكان اكثـر من مفتي واحد في نفس الوقت ، اما المالكيون والحنابلـة فقد كان لهم واحـد

---

(١) الغزى ، الكواكب السائـرة ، ج ٢ ص ١٢-١٤ .

(٢) الغزى ، " " ، ج ٣ ص ١٣ .

(٣) الغزى ، " " ، ج ١ ص ٤٣-٤٥ .

فقط وهـذا لقلّـة عددهم . [(١)]

وكان العلماء يقومون بوظائف ادارية اخرى في ادارة البنايـات العامة وأوقافها واهم هذه المؤسسات كانـت :

أ ـ البيمارسـتانات

كان لكل منها رئيـس للاطباء ، وهذا كان يأخذ اللقـب بعد ذهابه الى اسـطنبول . وكان البيمارسـتان النوري بدمشـق يعطـى للاتراك وقد عيّن ايضـا فيها فارسـيا . [(٢)] وكان كاتب البيمارسـتان عادة من اهل دمشـق ، يعطي المريض ورقـة بمثابـة شـهادة تثبـت خلـوّه من المرض . [(٣)]

ب ـ التكيـــه

انحصـرت الوظائف الكتابيـة والنظارة بهذه المؤسسات تحـت سـيطرة واشـراف العثمانيـين . [(٤)] اما الوظائف الدينية كالتدريـس وغيرها فقد كان المواطنون يقومون بها . [(٥)] وكانت نظارة السـليمانية

---

(١) الغزى ، الكواكب السـائرة ، ج ٢ ص ٩٩ .

(٢) الغزى ، " " ، ج ٢ ص ١٢١ .

(٣) الغزى ، " " ، ج ١ ص ٩٤ و ج ٢ ص ١٣٧ .

(٤) الغزى ، " " ، ج ١ ص ١٦٣ .

(٥) الغزى ، " " ، ج ١ ص ٢٣ و ج ٢ ص ١٩٥ .

بيد المفتي الحنفي العثماني ، اما الامامة فقد كانت بيد اهل دمشق .[1]

ج - الجامع الاموى

لقد كان للجامع الاموى ناظروه واوقافه الخاصة به . وكان الاتراك واهل دمشق يتولونه . ولكن في آخر القرن اعطي لافراد من الطبقة العسكرية[2] ، اما وظائف التدريس والوعظ والامامة وقراءة القرآن فقد انحصرت بأهل البلد فقط .[3]

د - اوقاف مكّة والمدينة

كانت ادارة هذه الاوقاف وظيفة محترمة تهافت عليها العلماء ورغبوا بها .

هـ - مدارس دمشق

كان هناك عدد كبير للمدارس في دمشق ولكن الغزى يذكر عددا صغيرا منها .[4] وكانت الصفة السائدة فيها بعد قدوم الاتراك

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ص ١٣ .
(٢) الغزى ، " " ، ج ١ ص ١٦٣ .
(٣) الغزى ، " " ، ج ٣ ص ١٣ .
(٤) الغزى ، " " ، ج ١ ص ١٥ ، ١١٧ ، ١٨٩ ، ٢٤١ ، ٢٦٠ . انظر ايضا الجدول - ج - .

ان يبنوا جوامع جديدة يلحقون بها مدارس جديدة ايضا اذ كانوا يهملون القديم منها . وكان لمعظم المدارس نظار يجمعون الاوقاف ويدفعون للموظفين . وقليلا منهم كان عثمانيا وقد اعتبر اهل البلد هذا وقفا عليهم ونرى ان ابن طولون اشتكى ان اربع مدارس كانت تدار بواسطة العثمانيين .(1)

كيفية تولّي الوظائف

يقدم لنا الغزى ذكرا وافرا عن كيفية تولي العلماء الوظائف المختلفة في ذلك العصر . ذكرنا سابقا الطرق التي توصّل بها العلماء لاستلام الوظائف التعليمية والتدريسية . اما الادارية فقد كانت من قبل السلطات الحاكمة وكثيرا ما سافر العلماء الى اسطنبول لهذا الغرض وكثر التنافس بينهم ودفعوا الاموال والقوا اشعار المديح ليصلوا الى مطلبهم هذا . وكثيرا منهم من أراد ان يأخذ الوظيفة بدل أبيه المريض او احد افراد العائلة الذى اضطرّ ان يتخلّى عن القيام بمهامّها .

وكان لاصحاب السلطة اليد المباشرة في هذه التعيينات

---

(1) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ١٣٧ ، ١٥٠ .

كقولـه " طلبه السـلطان الغورى في حلب وولاه كتابـة السـر في القاهـرة " . (١) وقد توسع السـلطان في اعطاء التعيينـات حـتى التعليمية منهـا كقولـه " انعم عليه الملك بالتدريس في الصـلاحية ، ثم جمع الى جانب ذلك خطابـة المسجد الاقصى " . (٢) لقـد تبـع الفاتحون الجدد المماليـك في سياسـة احترام العلمـاء . وعندما فتح السـلطان سـليم بلاد الشـام كان شـغوفا بالعلـم ، فنرى الغزى يذكر ذلك في عدة اماكن ويمتدح ايادى السـلطان البيضـاء على العلماء فمنهم من رقاهم واغدق المنعـم عليهم وبنى لهم المدارس كما صـحب معه كثيرا من العلماء الى عاصـمته وجعلهـم من جملة حاشـية بلاطـه ومستشاريه . ويقول بهذا الموضـوع عن احدهم " لما مرّ السـلطان سـليم على حماه ولاه القضـاء ثم بدا له ان يترك القضـاء في هـذه الدولة تورعـا لما احدثوه من المحصول والرسـم فتركه وترك وظائف أخرى فأخرجت له براءة واحـدة بنحو ثلاثين منصـبا . (٣) نستنتج كذلـك من هذا القول ان كثـيرا من العلماء نفـروا من الدولـة العثمانيـة لما احدثتـه من الشـرائع والقوانين اذ أزالت القديـم المألـوف وأحدثت الجديد الذى نفـر منه من اعتـاد على نمط معيّن من الادارة

---

(١) الغزى ، الكواكب السـائرة ، ج ١ ص ٧٦ .

(٢) الغزى ، " " ، ج ١ ص ٤٤ .

(٣) الغزى ، " " ، ج ٢ ص ٢٠٥ .

والوظائف الحكوميــة .

ولم يقتصــر اعطاء الوظائف على الســلطان وحده وانما قــام كبــار موظفيــه كالقاضــي او قاضــي العســكر بذلك ايضا . يقول المغربي بهذا الموضوع عن احد العلماء " خدم قاضــي عســكر الســلطان ســليم فقــرّره في بعض الوظائف ثم اعطي نظارة التكيــه بصــالحيه دمشــق ".(١) كذلك يقول " اذن له قاضــي القضــاة بالافتاء والتدريس مشــافهة ".(٢) وكان كثير من العلماء ، لورعهــم وزهدهم ، يتنزهون على الوظائـــــف القضــائية وذلك مخافة الله ان هم عجزوا ان يعدلوا ، ولأن وظيفـــــة القاضــي كانت محفوفــة بالمخاطر والتعرّض للرشــاوى والمشــاكل مع النــاس والدولة . ويلاحظ ان كثيرا من العلماء ماتوا قتــلا وان نســبة كبـــيرة منهم كانوا من القضــاة (٣) وهذا ما يفسر هذه الناحيــة .

كذلك اعيد كثـــير من العلماء الى وظائفهــم بعد خلعهـــم من قبل الرســميين ، فكان يعاد لهــم اعتبارهــم وتردّ لهــم مناصــبهم لثبوت براءتهــم او للتنافس بين الحاكــم الســابق واللاحــق وغيرهـــم من الرســميين العثمانيين في الولايــة .

---

(١) الغزى ، الكواكب الســائرة ، ج ٢ ص ٩٣ .

(٢) الغزى ، " " ، ج ٣ ص ٣٣ .

(٣) الغزى ، " " ، ج ٣ ص ٢٨ و ١٦٥ .

لا يفصّل الغزى احيانا ذكر كيف تولّى العلماء الوظائف وانما يقول مثلا عن احدهم " ولي عدة انظار منها نظر السيبائية وباشرها بعفّة وضبط اوقافها وزاد معالم المرتزقة وأحدث فيها تراقي ووظائف" .[1]

وكانوا ايضا يتولون الوظائف بتفريغ من اصحابها كقوله عن هذا الموضوع " تولى خطابة جامع التكيه السليمانيه بفراغ القاضي عبد الرحمن ابن الفرفود له عنها وتفرّغ هو عنها قبل موته " .[2] كذلك كانت الوظائف تتوارث كقوله " تولى اوقاف اجداده بعد والده" .[3] وفي بعض الحالات كان يعيّن نزولا عند رغبة الناس كقوله " ولي نيابة القضاء بسؤال معظم اهل البلاد وانتهت اليه رآسة مذهبه " .[4]

وكان للنظام الصوفي طريقة معيّنة لانتقال رآسة الطريقة فكان الشيخ يسلّم امور الفرقة الى احد مريديه من بعده[5] . ولا بدّ هنا من ذكر اهمية الوصاية ايضا في تسلّم العلماء المراكز الادارية اذ كانت وصاية ذوى الشأن والامراء من اهم العوامل في تدرّج العلماء في

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ١ ص ١٢٧ .

(٢) الغزى ، " " ، ج ١ ص ١٢٧ .

(٣) الغزى ، " " ، ج ١ ص ١١٢ .

(٤) الغزى ، " " ، ج ٢ ص ١٠٢ .

(٥) الغزى ، " " ، ج ٣ ص ١١٧ .

طبقتهم . (١) اذ كانت الصداقة او التفاهم مثلا بين أمير او حاكم مع احد العلماء تؤدى به فيما بعد ، وبعد ان يعلو شأن الامير او الحاكم ويصبح من منفذى الحكم اما في الولاية او في العاصمة نفسها ، وبالتالي يعيّن اصحابه من العلماء في المراكز التي يرى انهم يستطيعون ان يخدموه بها . وهذا ما أدى كثيرا في حال حدوث نفور بين الامير ووصيّه الى قيام المشاكل او الى خلع العالم او خلع الحاكم احيانا . (٢)

القسم السادس - المركز السياسي للعلماء .

تمتّع العلماء كما ذكرنا سابقا بمركز سياسي محترم في الدولتين المملوكية والعثمانية وسعى الجميع الى كسب رضاهم ومحبتهم فهم قادة الشعب من ناحية ومستشارو البلاط من ناحية اخرى ، وقد قوى مركز العلماء وترقوا في سلك الوظائف في الدولتين . أورد الغزى ما يؤكّد هذه النظرية وهذه بعض اقواله في هذا الموضوع . " كان ملتحقا بالسلطان الغوري ونال بصحبته مرتبات

---

(١) Gibb & Bowen, Islamic Society, Vol. I, Part I, p. 77.

(٢) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ، ص ٣٧ .

ووظائف وأثرى وقوى بأسه وتولّى " . [١] وكقوله ايضا " كانت شفاعته مقبولة وكلمته نافذة عند الملوك والامراء فمن دونهم ، لا تردّ له شفاعة " . [٢] " كان متصرفا بالملوك في مصر والشام فلا تردّ شفاعته " . [٣] " وكان ولي دمشق يكرّم العلماء والصالحين " . [٤] وكانت اللغة هي التي ميّزت العلماء في العصر العثماني قبل انتشار اللغة التركية اذ كانت وسيلة التفاهم بين الفاتحين وأهل البلاد كقوله " كان شجاعا مقداما على الملوك ووقع له من السلطان وقائع وترقّى مركزه عند الاتراك بواسطة اللسان " . [٥] وقد تدخّل كثير منهم بأمور السلطنة وقاموا بأعمال عدّة ، ويقول الغزّى في هذا المضمار " داخل في امر السلطنة وصار له عنده اليد النافذة وهرع الناس اليه " . [٦] وكانوا مسموعي الكلمة عند حكّام الدولة العثمانية وكان الناس يترددون اليهم فيشفعون لهم ويقضون حوائجهم ويتوسلون لهم عند ذوى الامر .

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ١ ص ٨٢ .

(٢) الغزى ، " " ، ج ١ ص ٢٠٩ .

(٣) الغزى ، " " ، ج ١ ص ٢٤ .

(٤) الغزى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ص ١٢٠ .

(٥) الغزى ، " " ، ج ٢ ص ٥ .

(٦) الغزى ، " " ، ج ٣ ص ٢٩ .

بالاضافة الى مركزهم الرسمي وتقرّبهم السياسي عند السلاطين ، فقد تقرّبوا منهم اجتماعيا ايضا كقوله عن احدهم " كان من ندماء السلطان وخواصه " (١) و " صار جليس السلطان " . (٢)

وكان السلطان سليم اكثر السلاطين تقرّبا من أهل بلاد الشام في القرن العاشر . وقد أجلّ وأحب بنوع خاص العلماء ، ويرجع هذا التقارب الى ان السلطان سليم الاول هو اول سلطان للأتراك في البلاد الشامية وكان عليه واجب التقرّب الى الناس لدعم الدولة الجديدة . ورأى ان افضل هذه الطرق هي التقرّب من العلماء في المدن واغداق العطايا عليهم ليؤثروا في نفوس اهل البلاد اذ كانوا كما ذكرنا سابقا حلقة الوصل في المجتمع الشامي . ويقول الغزى بهذا المعنى " كان جيد الخطابة ولما دخل السلطان سليم حلب وسمعه حظي عنده وقد أحبّه السلطان محبة عظيمة لاعراضه عن المال " . (٣) لقد تأثر السلطان بهذه المزايا الطيّبة ، فوثق بالعلماء وقوى مركزهم عنده وبنى لهم أماكن للدرس . وقد سافر كثيرا منهم بعد رحيلهم عن بلادهم الى

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ص ١٠٦ .

(٢) الغزى ، " " ، ج ٢ ص ٣٧ .

(٣) الغزى ، " " ، ج ١ ص ٢١٠ .

عاصمته لمقابلته في قضية او حاجة فكانوا يلقون الترحاب والمساعدة . ويقول الغزى عن احدهم بهذا المعنى " اجتمع بالسلطان سليم خان ابن ابي يزيد خان ابن عثمان ، فاعتقده اعتقادا زائدا واعطاه قرية " كتيبة رأس الماء " ثم استقرّ الامر على ان عيّن له قرية " كناكر " تابع وادى العجم وغلالها الى الآن يستوفيه الصمادية بعضه لزاويته بمحلة الشاغور وبعضه لذاريته " .(١) وكان السلطان يستدعي احيانا بعض العلماء الذين يسمع بهم وبشهرتهم العلمية وتأثيرهم الشخصي كقوله عن احدهم " طلبه السلطان سليم فسافر الى الروم ودخل عليه وأمره بالجلوس وأمر له بعشرين عثمانيا في زاوية عمارة ولده بدمشق فأبى ثم قبل بعد تصميم .(٢)

وفي كثير من الاحيان كان العلماء يرفضون الوظائف ويعفون عنها ، منهم لاسباب سياسية ، ومنهم لاسباب اخلاقية كقوله "تنزه عن الحكم ثم ألزم به من قبل السلطان سليم عن لسان نائبه بالمملكة الشامية " .(٣) وهكذا كسر وترفع العلماء بنظر اعيان الاتراك لما رأوا من فضلهم وصلاحهم كقوله بهذا الموضوع " كان

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ٣١ .

(٢) الغزى ، " " ، ج ٢ ص ١٥٢ .

(٣) الغزى ، " " ، ج ٢ ص ١٧ .

للناس فيه اعتقاد وخصوصا اعيان الاروام " . (١) كذلك اقتدى بهم رجال السياسة العثمانيين كقوله عن احدهم " وحصل له اقبال من السلطان والوزير الاعظم اياس باشا واعطى دنيا ووظائف منها امامة المالكية . " (٢)

لم يخف على العثمانيين ما كان لهؤلاء العلماء من تأثير شعبي فنرى انهم كانوا يؤيدون من أيدهم من العلماء ، اما أولئك الذين تنكروا لهم فكانوا لا يتورعون عن تأديبهم ومعاقبتهم كقوله " كذلك بنى له نائب حلب تكيه عظيمة اجتمع عليها خلائق لا يحصون فوقعت فتنة في حلب فقال الناس ، ان ذلك باشارة الشيخ فنفى الى رودس " . (٣) من هذه الحادثة نستنتج ان بوادر الصراع أخذت تظهر بين العلماء وأصحاب السلطة ، وكان مردّ هذا التنافس الذى قام بين الولاة الاتراك والمتزعمين من اهل البلد والعلماء وهناك حوادث كثيرة تثبت هذا القول كقول الغزى في هذا الموضوع " وحصلت محنة من نائب دمشق سنان باشا وحصل الانكار عليه بسكنه في المدرسة العادلية المقابلة للظاهرية " . (٤) وكان عندما

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ٣١ .
(٢) الغزى ، " " ، ج ٣ ص ١١٨ .
(٣) الغزى ، " " ، ج ٣ ص ١٢٤ .
(٤) الغزى ، " " ، ج ٢ ص ٧٩ .

تتأزم الامور بين الرسميين المماليك او الاتراك والعلماء كان هؤلاء يذهبون الى السلطان ليبتّ في امرهم وينهي هذا الخلاف كقوله في هذا الموضوع " وينزل في مجالسه الوعظيه في الظلمه في القضاة والوزراء والامراء وربما واجههم بذلك حتى في دار السلطة لا يقدر له احد على سوء ". [1] وفي مكان آخر يقول " وصل الى اسلام ابول فحصل له من السلطان مراد خان الرعاية التامة وخلع عليه ". [2]

القسم السابع بعض المشاكل التي واجهت العلماء

وقد واجهت العلماء مشاكل دينية وسياسية واجتماعية عدّة فمثلا نرى ان احد القضاة استقال لتنكّره للعطايا والهبات التي تعطيها الدولة في بعض الاحوال [3] ومشاكل ادخال اى جديد على القديم المألوف ، فمثلا مشكلة قرع الطبول ، او احداث بركة في الجامع ، فهل هذه يا ترى ابداع على الدين ؟ [4] وهنا

---

(١) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ص ١٤٨ .

(٢) الغزى ، " " ، ج ٣ ص ٥٣ .

(٣) الغزى ، " " ، ج ٢ ص ١١٦ .

(٤) الغزى ، " " ، ج ٢ ص ١٣ .

نرى ان العلماء كانوا المنتصرين في معظم الاحوال . فمثلا أراد نائب دمشق سنة ٩٣٨ هجرية بناء بركة في وسط الجامع الأموى واعترض على ذلك احد العلماء الذين لم يرضوا باقامتها فمنعوا البنائين من ذلك فقام النائب مغتاظا لدى سماعه ما جرى . ولما جاء القاضي عقد العلماء بالمنع فكتب النائب الى مفتي اسطنبول يسأل عن جواز ذلك ولكن العالم (١) كتب مؤلفا سماه " البرق الدامع في المنع من البركة في الجامع " . واذ كانت له كلمة مسموعة فقد نفذت ارادته ومنع البناء .

ومشكلة اخرى من مشاكل المجتمع التي واجهت العلماء كانت تحليل او تحريم شرب القهوة . وكان هذا ما دفع احد العلماء الى ان يكتب الى شيخ كبير مشهور يستنير برأيه ويستفتيه في مسألة شرب القهوة ، اذ كتب له ابيات شعر بهذا المعنى فأجابه الشيخ علي ابن عراق ، وكان شيخا جليلا مشهورا بعلمه وتقواه ، بأبيات يشرح فيها مضارّ القهوة اذ انها سبب لاقامة المجون والرقص والخلاعة وان بيوت شربها ينظر اليها العلماء كمكان للمفاسد وان رأيه الاعتدال بشربها اذ انها بحدّ ذاتها غير مضرّة وانما ما يأتي معها هو الفساد عينه ولا يسمح لأحد بذلك (٢)

---

(١) وكان محمد ابن سلطان الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ١٢٣ .

(٢) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ١٩٧ .

وفي ترجمة الغزى لأحد العلماء المشهورين الذين تولّوا المناصب المهمة انه قال بتحريم القهوة التي حدثت بدمشق انها من جملة المصائب التي حلّت بهذا الزمان وانه كان يسمى بيت القهوة " الخمارة " وانه من العار دخولها وهكذا نرى ان شرب القهوة بقي شيئا مستهجنا الى اواخر القرن العاشر .

واذا كان شرب القهوة مستهجنا فكيف بالحرى شرب الخمر فقد كان من اكبر المحرمات ، وهذه حادثة تبرهن المشاكل التي واجهت العلماء احيانا من قبل السلطة المدنية التي كانت مدفوعة الى اخذ موقف ما بالنسبة لاقامة الامن وفرض الكلمة ومساندة التجار . وفي ترجمة الغزى لأحد العلماء (١) المشهورين ان هذا اقام هو وجماعته في القابون التحتاني يرصدون الطريق على نقلة الخمر فيقطعون ضروفها ويريقونها فبلغ الحكام ذلك فقبض النائب على بعض جماعة الشيخ وحبسهم في سجن " بباب البريد " فنزل الشيخ مبارك يشفع فيهم فأمر النائب بوضعه في الحبس معهم . ولما بلغ الخبر القاضي أرسل وشفع له فأطلق ثم هجم بقية جماعته على السجن وكسروا بابه وأخرجوا من فيه من رفاقهم فبلغ النائب فأرسل جماعة من مماليكه فقتل منهم نحو سبعين ثم ترك الشيخ فنفر الشيخ ، في هذه الحالة بعد

---

(١) الشيخ مبارك الحسيني ، الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ٢٤٥ .

ذلك ولازم حضور الزوايا فقط . هذه الحادثة ترينا سيطرة العلماء على التفكير الشعبي وتخوّف الحكام منهم .

العلاقة مع الصوفيين

كان للصوفية طابع مميّز في الدولة العثمانية ، ولهذا تعرّضوا بين حين وآخر اما للمضايقة واما للسيطرة من قبل العلماء والسلطة فنرى ان بعض كتبهم أنكرت ومنع من تداولها . وكان ان تطرّف احد الصوفيين الى الادعاء بأنه يبرئ من الجنون بعمل نشرات يخطون فيها خطوط كيف اتفق ، فيشفى ذبها العليل ثم يكتبون للمبتلي احجبة عند فراغه من شرب النشر ويحصل الشفاء . ولكن العلماء أنكروا عليه ذلك ثم تاب عن هذه الاقوال بعد ان رأى النبي صلى الله عليه وسلم بمنامه وأنبه على عمله هذا . وعندما فاق بعد عدة ايام من نومه ابطل ذلك كليا . (1)

ولكن هذا لا يعني انه لم يكن للصوفيين مركز محترم فقد نالوا ذلك من السلطة والشعب ، فهناك مثلا على احترام احد نواب دمشق للصوفيين اذ كان " مكرما لأهل العلم ومشايخ الصوفية ولبس الخرقة القادرية وهذا ما اعطاه فرصة للترقي والترفع " .

---

(1) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ص ٢٣٦ .

وكان الصوفيون يحوزون على مراكز تعليمية محترمة كقوله بهذا المعنى " وكان مدرس السيائية بتقرير من واقفها " .(١) وقد اشتهر منهم الكثير بنزاهتهم كقوله " لا يأكل من مال المحاكم مع أنه ولي مكرما وعزله قضاة الاروام بعد ان كان قاضيا في الدولة السليمية والسليمانية " .(٢)

ولقد كان الصوفيون أقرب الى غوغاء الشعب من بقية العلماء وتداخلوا فيهم كثيرا وقاموا في كثير من الاحيان بعمل الوسطاء وكانت شفاعة مشايخهم لا تردّ لدى المحاكم .(٣)

---

(١) الغزى ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٣١ .

(٢) الغزى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٢١٣ .

(٣) الغزى ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ص ٤٣-٤٤ و ٢٠٥ .

الخاتمــــــة

لقد جعل الشعب والسلطة الحاكمة في القرن العاشر الهجرى "العلماء" العامل الاساسي للحفاظ على المجتمع الاسلامي في المبدأ والنظام بدون اى تمييز عنصرى او سياسي كالذى كان يتجاذب طبقات الشعب المختلفة خارج اطار الاسلام . وقد تميزت هذه الطبقة أيضا بأنها أخذت سلطتها من الاعتراف العام بها ، وليس من القوة العسكرية .

كانت الحضارة الاسلامية حضارة مدنية بالأصل . وبالقاء نظرة على مدن القرن العاشر نستخلص فكرة واضحة عن البناء الاجتماعي للمجتمع الاسلامي . لقد تألفت المدن من عدة طبقات ورغم تفاوت طريقة الحياة بين طبقاتها ، لكنها قامت جنبا الى جنب وترابطت بشبكة قوية . فهناك خيوط ربطت افراد المجتمع بعضهم ببعض كالعادات والتقاليد والوصاية والأخوية في الاسلام ، والعلاقة بين السيد والخادم وبين افراد النقابات وابناء الحارات والزمالة بين الطلابه والمشايخ وحلقاتهم .

لقد تمكّن المماليك من الحكم هذه الحقبة من الزمن وذلك بجمع شمل اطراف المجتمع المبعثرة باقامة علاقة مباشرة مع العلماء وكبار التجار ومشايخ الحارات الذين ساعدوهم في اقامة حكمهم ، ولم تغيّر الدولة العثمانية الكثير وهذا ما جعل الترابط ان يبقى سائدا خلال القرن العاشر . كان العلماء فئة من فئات السكان ، ولذلك قاموا بأعمال وأشغال يدوية عدّة ممّا أدخلهم في صفوف عامة الناس ولم يجعل منهم

طبقة منفصلة كطبقة رجال الدين خارج اطار الاسلام ، وقد أوضح هذه الظاهرة تزاوج رجال السياسة مع عائلات العلماء . وهكذا بقوا متصلين بالسلطة من ناحية ومتداخلين مع الطبقة الدنيا في المجتمع من ناحية اخرى . وقد رأينا ان كثيرا من هؤلاء العلماء كانوا من الاسياد والاغنياء ، ولكنهم لم يترفعوا عن المجتمع المدني كالسادة في اوروبا الذين سكنوا اقطاعاتهم وقلاعهم .

اما المدارس فقد كان لها ما يميزها ايضا . فهي ذات طبيعة خاصة وعلاقة قائمة بين الاستاذ وتلميذه ، ولها هبات مالية عاشت عليها ، ونظام معيدين لشرح واعادة الدروس واجازة تعطى لمن برع في هذا الموضوع او ذاك . وكان للحياة الثقافية خصائصها ايضا ، فوظيفة التدريس وظيفة جليلة القدر يخلع السلطان على صاحبها . لقد كان للعالم والمدرس مركز يحيط به الوقار والهيبة وكانت شهرتهم في المواضيع المختلفة تجذب طلاب العلم اليهم في البلاد البعيدة . وهكذا كما رأينا أصبحت مراكز العلم في بلاد الشام ملجأ لهؤلاء الطلبة وخاصة ان روح العصر وصعوبة نقل الافكار من بلد الى آخر وقلة الكتب أملت على الطلبة ان يسلكوا هذا المسلك .

ومجمل القول ، كانت المؤسسة الدينية تختلف عن مثيلتها في العالم المسيحي . لقد كانت متطلباتها اقل من متطلبات الكنيسة ، ولكنها كانت تطال المسلمين جميعا في الدولة وترفعهم عن بقية سكان البلاد . ورغم ان الاسلام ليس له واجبات كثيرة او نظام صارم او ارستقراطية

مترفعة . الا انه كان جامعا للثلاثة معا . هذا بالاضافة الى نظام تعليمي معيّن وجسم تعليمي معترف به وطبقة مميزة من الفقهاء والقضاة .

لقد رأينا انه مع توسع الامبراطورية العثمانية أصبح العلماء اقلية مرغوبا بها ولهذا اضطر السلطان ان يشجع هجرة علماء بلاد العرب واستيطانهم وتشغيلهم في الوظائف الحكومية لتعليم ابناء الاتراك . وبهذا اصبح لدينا في نهاية القرن العاشر فريقا من العلماء يعترف به كطبقة مميزة لها وزنها العلمي والسياسي ، لم يغيّر السلطان سليم كثيرا في النظام المملوكي عند استيلائه على الحكم في بلاد الشام فقد اعترف جزء من المماليك بسلطته واظهروا له الطاعة [١] ولكن هناك فريقا آخر [٢] أراد الاطاحة بالحكم عند المقدرة وجاءت الفرصة كما رأينا عندما توفي السلطان سليم ، ولكن القوة التركية اخضعته كما اخضعت فرق الشباب والزعار التي ناصرته . وربما لم يستطع الى ذلك سبيلا ، لوقوف العلماء الى جانب السلطة ، وبهذا كسبوا الشعب الى جانبهم وكان لتأثيرهم وتوجيههم المعنوى خير معين للفاتحين .

لقد اعد العثمانيون دراسة مطولة لاحوال البلاد ، ووضعوا نظاما ضرائبيا مفصلا ملأ الخزينة . وبهذا المدخول استطاع العثمانيون

---

(١) من كان منهم بقيادة خير باى .

(٢) بقيادة الغزالي بدمشق .

ان يؤيدوا العلماء ويمدوهم بالمعونة ويشجعوا اقامة الزوايا والمدارس .

لا شك ان الوجود العثماني في الشام كان وجودا عسكريا في غالب الامر ، وقد تأثر بذلك مراكز ووظائف عدة ، وبالتالي قسمت البلاد تحت امرة رجال عسكريين للسيطرة على الحكم والمحافظة على القانون والنظام وتأمين الحماية للحجاج وملتزمي الضرائب ، بينما بقي التدريس والقضاء والاتصال مع الشعب من خصائص العلماء . ويمكننا تشبيه العلماء في ذلك العصر " بوزارات التربية والاعلام والعدل والشؤون الاجتماعية " في مفهومنا الحديث ، فهم كانوا مرآة الدولة والصوت الناطق باسمها لدى جماهير الشعب . ولكن الدولة العثمانية اخذت في اواخر القرن العاشر تقيّد الطبقة المذكورة بعدة شروط وقوانين في التدرج والتسلسل وتصبغها بصبغة مدنية حكومية ، ولكن هذا التأثير لم يكن قويا في بلاد الشام لبعد المنطقة عن العاصمة التركية . وهذا ما ادى الى احتفاظ هذه الطبقة بحريتها واستقلالها عن المؤسسة السياسية .

رغم ان رجال الدين في الاسلام لم يكن لهم المميزات الكثيرة التي كانت لدى اقرانهم في العالم المسيحي ، ولكن العلماء افراد الجسم العلمي والتعليمي تمتّعوا بمميزات سياسية واهمية كبرى لم نر مثلها في اية دولة اخرى في ذلك العصر ما عدا الصين ربما .[١]

---

(١) Albert Lybyer, The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent. (Cambridge; Harvard University Press, 1913), p. 203.

تجلّت قوة طبقة العلماء ايضا في مركز " المفتي في الدولة العثمانية " فقد كان يتمتع بمركز ملوءه الاحترام والتقدير ، فهو الذى يقرّر الحروب[(١)] وشـرعيتها ، وهو حلقة الوصل بين السـلطان والشريعة وهو الوحيد الذى يقرّر عزل السـلطان في حال تعدّيه الشريعة ، وهو بكلام آخر المرجع الاكبر على الارض في القانـون السـماوى . ورغم ان السلطان هو المقرر للعرف والقانون لكنه لا يخرج عـــن ما يلائم الشريعة ، وبهذا فاق مركز المفتي مركز السلطان في هذه الناحية .

لقد كان لتطبيق الشريعة الاسلامية في جميع انحاء الامبراطوريـــة الجامع الذى وحّـد العلماء وجعل منهم طبقة خاصة فكان القاضـي في القاهرة او بودابســت او دمشق او اسطنبول ذو مركز ودراسة موحدة في القانــــــون والشريعة .

واذا قارنا بين الطبقة الحاكمة وطبقة العلماء ، نرى ان الاولـى مالت الى الحروب واستعمال القوة بينما الثانية مالت الى التحالف والتفاهــــم وهذا ما ادى بالحكومة الى التقلب والتغير بينما بقيت الطبقة العلمية محافظـة على مبادئ ثابتة وانحصـرت في ابناء الامة الاسلامية فقط حينما دخلــــت الوظائف الحكوميـة اديان اخرى .

رأينا سـابقا ان العلوم الدينية ازدهرت اكثر من العلـــــوم الدنيوية في هذا القرن واصبحت مدارس الجوامع مراكز العلم الاولى واشـتهرت بتدريس العلوم الاولى على حساب العلوم الاخيرة . حتى ان الاغنيـاء الذيـن

---

(١) وخاصة الحروب ضد الخارجين على الدين .

وهبوا اوقافا اوتقوها لدراسة الفقه ولاعلاء العلوم الدينية خدمة للاسلام .
لقد اظهر العلماء اجمالا بعض التحيز والتعصّب وارادوا ارجاع ما حاول
سليمان القانوني ادخاله على نظام البلاد . وقد لاقى ثلاثة من العلماء
الموت لأنهم اتهموا بالتحيز الفكري وادخال الجديد الغير مقبول . (١)
وقد منعت الكتب الاوروبية المطبوعة من استيرادها وبهذا اقفلت الحكومة
اخر خط يمكن ان يأتي الى الشرق لمعرفة ما يجري في عصر النهضة في
الغرب . وكان " حاجي خليفه " عالما فريدا من نوعه اراد دراسة
العلوم وتطوّرها ، فقد انتقد عدم تقدير العلماء للعلوم المدنية وحاول
دراستها عن غير طريق المدارس . لقد درس الفيزياء والفلك والهندسة
والجغرافيا وألف كتبا في ذلك . ولكنه لاقى اضطهادا من العلماء لأنه
اراد بعث هذه العلوم في البلاد الاسلامية ، وبهذا تقوقعت المدارس
على نفسها واصبحت الدراسة فيها محصورة في اعطاء محاضرات في العلوم
الدينية وأخذت العلوم المدنية تتطلع لمتنفس لها في اماكن اخرى .

لقد كان انطواء العلماء هذا حجر عثرة في طريق تقدم العلوم
على المستوى الاوروبي ، وهذا ما ادى بالتالي الى ضعف مركزهم
العلمي في الامبراطورية في العصور اللاحقة وخاصة بعد الحملة

---

(١) Gibb & Bowen, Islamic Society, Vol. I, p. 2, p. 151.

الفرنسية على مصر وقدوم الارساليات الاجنبية الى بلاد الشام .

وبالجملة ، نستطيع ان نقول ان القرن العاشر الهجري قرن العلماء الأواخر وخاصة في الدور السياسي الذى لعبوه فهم كما رأينا كانوا طبقة مميزة منفصلة عن باقي اجهزة الدولة تتمتّع بالاعفاء من دفع الضرائب ، وكانت كنقابة بحدّ ذاتها تقف متراصّة بوجه القانون المدني وتتمتّع بالاستقلال الذاتي في توزيع مواردها ومدخولها والحرية الكافية في طرق تدريسهم . وكثيرا ما يتهم العلماء بأنهم العائق في سبيل التطور ولكننا لا ننكر انهم حافظوا على التراث القديم وابقوا المجتمع مصبوغا بصبغة اسلامية مميّزة .

الجـــــدول - أ -

أصـول العلمـــاء وتحرّكهـــم الاجتماعـــي

احتكار العلم في عائلات معينـة		٪١٢
مكان وتاريخ الولادة		٪٩١
ليسوا بالاصل من مكان المولد		٥ من ٩١
توزيعهم حسب مكان المولـــد	دمشـق	٣٢ من ٩١
	حلـب	١٩ " "
	القدس	٩ " "
	حمـاه	٥ " "
	طرابلس	٤ " "
	غزه ، صفد والخليل	٢ لكل منها
	بوديـن وايجــه	١ لكل منها
تاريخ الميـلاد		٪٣٦
اباؤهم من العلماء المرموقين		٪١٧
اباؤهم من العلماء الاقل اهمية		٪١٣
ذكر وظيفة الاب والجد والاقارب		٪٢٠
تركوا اوقافا		٪٩
تسلموا اوقافا		٪٤
حظوا برضى السلطان		٪٢٧
وضع العالم وقت الوفاة		٪٧
تركوا طبقة العلماء		٪٤
سافروا من مكان الى آخر		٪٥٥
سافروا الى الحج		٪٤٧
ذكر تاريخ الوفـاة		٪٨١
ذكر مكان الوفـاة		٪٧٧
نقل تراجمهم [illegible]		٪٣٨

الجـدول - ب -

المذاهب والحيـاة العامّـة

ذكـر المذهب	٧٢٪	
شـافعي	٥٢ من ٧٢	
حنفـي	١٤ " "	
مالكـي	٤ " "	
حنبلـي	٢ " "	
من الاوليـاء	٣٣٪	من اصحاب النسـب ٦٪
صوفيين	٢٨٪	
اصحاب خصال حميدة	٤٨٪	
الجمال الجسماني	٢٢٪	

الجـــدول - ت -

المدارس ودور العلماء في الحياة الثقافية

اسماء المدارس	٤٥٪	
اسماء الاساتذة	٦٤٪	
اسماء الكتب	٦٩٪	٣١ من ٦٩ اعطوا اجـازة
ذهبوا لاداء فريضة الحج	٤٧٪	
كتبوا كتبا ودواوين	٢٨٪	
برعوا بالعلوم الغير دينية	١٤٪	

الجـــدول - ث -

مـــوارد الـــرزق والوظائـــف

ذكر موارد رزقهـــم	٢٧٪
ذكر الوظائـــف	٦٤٪
مدرس	١٣ من ٦٤
خطيب	١١ " "
مفتـــي	٨ " "
قاضي	٦ " "
واعظ	٥ " "
ناظر اوقاف	٤ " "
امام	٤ " "

الجـــدول - ج -

مدارس دمشـــق في القرن العاشـــر [(١)]

دور القرآن	٧
دور الحديث	١٢
دور القرآن والحديث معا	١

المدارس

مدارس الشـافعية	٦٠
مدارس الحنفيـة	٥١
مدارس الحنابلة	١١
مدارس المالكيـة	٤
مدارس الطـب	٣
المســاجد	١٢١
التـرب	٧٧
الجوامـع	٣١
الخـوانق	٢٩
الزوايـــا	٢٦
الرباطـات	٤

---

(١) هذه الاحصائية مأخوذة من كتاب النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس .

الاسم	البلد	المذهب																						
حمد ابن عوجان جزء أول	القدس	مالكي	✓	✓	✓			✓			✓			✓	✓		✓			✓	✓	✓			✓
حمد الفناري	بلاد الروم	حنفي	✓			✓	✓	✓			✓		✓	✓							✓		✓		✓
حمد ابن جماعة	القدس	شافعي	✓	✓		✓	✓				✓		✓	✓	✓						✓			✓	✓
حمد الحسيني	دمشق	شافعي	✓	✓	✓			✓			✓		✓		✓	✓	✓			✓	✓			✓	✓
حمد ابن رمضان				✓		✓				✓	✓		✓	✓					✓						✓
حمد الكفرسوسي	دمشق	شافعي					✓	✓			✓		✓	✓			✓				✓	✓		✓	✓
حد ابن عراق	دمشق			✓	✓		✓	✓		✓	✓			✓	✓					✓			✓	✓	✓
حمد الجلجولي	غزة	شافعي			✓	✓	✓			✓	✓	✓	✓				✓			✓		✓		✓	✓
حمد الناسخ	اطرابلس	مالكي		✓	✓	✓	✓								✓					✓		✓			
حمد التركماني	اطرابلس	حنفي					✓				✓	✓	✓				✓			✓					✓
حمد الخرساني	حلب						✓			✓															
براهيم القصيرى	حلب	شافعي			✓	✓		✓			✓		✓	✓	✓		✓			✓	✓		✓		✓
بو بكر ابن قاضي عجلون	دمشق	شافعي	✓	✓	✓	✓	✓			✓	✓		✓	✓	✓					✓		✓		✓	✓
بو سنقر البعلي	دمشق					✓	✓	✓			✓	✓			✓										
حمد الصفدى	صفد			✓		✓	✓				✓												✓	✓	✓
حمد الشيباني	القدس	شافعي	✓		✓	✓	✓	✓		✓				✓	✓					✓					
سماعيل الخطيب	دمشق		✓			✓					✓	✓		✓	✓										✓
ركات الكيال	دمشق		✓	✓		✓		✓					✓	✓	✓		✓							✓	✓
حسن الحصكفي	حلب	شافعي	✓		✓	✓	✓	✓			✓	✓	✓	✓	✓					✓	✓				
خديخة التبلوني		حنفية									✓			✓	✓				✓						

الله الكيناوي	صفد	شافعي							✓		✓	✓	✓	✓	✓			✓		✓	✓				✓
الرحمن الكلسي	حلب		✓		✓	✓								✓	✓					✓	✓				
د القادر الابار	حلب	شافعي					✓	✓						✓	✓						✓			✓	✓
د القادر بن حبيب	صفد	شافعي			✓	✓	✓		✓		✓	✓	✓	✓	✓					✓	✓	✓		✓	✓
د القادر النعيمي	دمشق	شافعي	✓		✓	✓				✓			✓	✓	✓		✓			✓	✓				✓
بد النبي المغربي	حلب	مالكي			✓	✓		✓					✓							✓					✓
ي الكردي	دمشق	شافعي		✓	✓		✓	✓	✓				✓	✓	✓					✓					✓
ئشة الباعونية	دمشق				✓	✓	✓		✓	✓				✓	✓					✓	✓	✓			
سى الاريحاوي		شافعي			✓			✓					✓	✓	✓					✓					✓
مة الصفدي	صفد					✓	✓		✓		✓	✓													
سف الهمداني	حلب	شافعي	✓	✓	✓	✓	✓			✓			✓	✓	✓		✓			✓					✓
ي ابن الشيرازي	حلب				✓	✓		✓							✓					✓	✓				✓
ي المغربي	فاس	مالكي		✓	✓	✓	✓	✓		✓				✓	✓	✓	✓			✓			✓	✓	✓
حمد الغزي جزء ثاني	دمشق	شافعي	✓	✓	✓	✓	✓	✓	✓	✓	✓			✓	✓		✓			✓	✓				✓
حمد ابن سلطان	دمشق	حنفي	✓		✓	✓	✓					✓		✓	✓					✓					
حمد البلبيسي		شافعي		✓		✓	✓	✓						✓	✓				✓	✓	✓				✓
حمد ابن الفرفور	دمشق	شافعي	✓		✓	✓	✓							✓	✓		✓			✓		✓			✓
حمد الصمادي	دمشق	شافعي		✓		✓	✓	✓	✓	✓						✓	✓	✓							
حمد البعلي	بعلبك							✓	✓	✓	✓		✓	✓	✓		✓				✓			✓	
حمد البصروي	دمشق	شافعي	✓			✓	✓	✓			✓	✓													✓

الاسم	المدينة	المذهب	1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23
حمد الحموي	حماه	شافعي	✓		✓	✓	✓	✓		✓	✓	✓	✓	✓	✓					✓					✓
حمد ابن طولون	دمشق	حنفي	✓			✓	✓							✓	✓						✓	✓	✓		✓
حمد الشافعي	حلب	شافعي		✓	✓	✓		✓	✓	✓	✓	✓	✓			✓				✓		✓		✓	✓
براهيم ابن جماعة	القدس	شافعي	✓		✓	✓	✓	✓		✓			✓	✓	✓					✓	✓				✓
براهيم العمادي	حلب	شافعي	✓		✓	✓	✓							✓	✓					✓			✓	✓	✓
بو بكر القادري	دمشق	شافعي						✓						✓	✓							✓			✓
بو الفضل الاحمدي				✓	✓				✓	✓	✓	✓		✓	✓					✓					
حمد كمال	دمشق	شافعي				✓	✓	✓			✓		✓	✓	✓	✓								✓	✓
حمد البيطار	نزيل دمشق	حنفي	✓		✓	✓					✓		✓							✓					
وران بنت الشحنة	حلب		✓	✓	✓	✓	✓							✓	✓			✓				✓			
حسن ابن ترغل	غزة	حنفي											✓	✓	✓					✓				✓	✓
خديجة الصالحية	دمشق	حنبلية				✓		✓	✓							✓	✓	✓							
بد القادر الصميوني	طرابلس	شافعي			✓	✓	✓				✓		✓	✓	✓					✓		✓		✓	✓
بد الكريم الجعفري	الخليل					✓	✓											✓							✓
بد اللطيف الخرساني					✓	✓		✓	✓	✓			✓	✓	✓		✓			✓		✓			
بد الوهاب الحيثاوي	القدس	شافعي	✓			✓	✓		✓		✓	✓	✓	✓	✓		✓				✓				✓
لي القدسي	القدس	شافعي	✓	✓		✓	✓	✓	✓		✓			✓	✓					✓		✓		✓	✓
لي البكري	دمشق				✓					✓	✓		✓	✓	✓					✓	✓	✓	✓		
لي سعيد	حماه	شافعي	✓		✓	✓		✓					✓	✓	✓					✓					✓
لي الكيزواني	حماه		✓		✓	✓	✓			✓							✓						✓		

الوديني	بودين	حنفي	✓		✓	✓	✓			✓			✓	✓	✓	✓				✓					✓
الشماع	حلب	شافعي	✓	✓	✓	✓	✓		✓					✓	✓					✓	✓				
العقيبي	حماه	شافعي				✓	✓						✓					✓						✓	
الصفدي	ايجه	شافعي	✓		✓				✓	✓				✓	✓		✓			✓					✓
بارك الحبشي	دمشق	شافعي	✓			✓	✓	✓			✓	✓	✓			✓							✓		
الجعفري	حلب	حنفي				✓	✓	✓	✓		✓	✓		✓	✓					✓					✓
حمد النزي جزء ثالث		شافعي	✓	✓	✓	✓	✓	✓	✓	✓	✓	✓	✓	✓	✓					✓	✓	✓			✓
حمد البيتي	دمشق					✓	✓	✓	✓		✓	✓		✓	✓										✓
حمد العمادي	دمشق	شافعي	✓	✓		✓	✓	✓	✓	✓							✓								
حمد السره	نزيل دمشق	شافعي		✓		✓	✓		✓	✓													✓	✓	
حمد الحنبلي	حلب	حنفي			✓	✓	✓		✓					✓	✓					✓	✓	✓			
حمد الرستاني	دمشق		✓		✓				✓		✓		✓			✓						✓		✓	✓
حمد الحنبلي																									
حمد ابو خليل	دمشق	شافعي				✓	✓		✓				✓	✓	✓				✓		✓				
حمد الجوبري	دمشق	شافعي		✓		✓	✓		✓						✓								✓		✓
حمد الزغبي	دمشق					✓	✓		✓								✓	✓							
حمد المرشي		حنفي				✓									✓				✓	✓					✓
براهيم الدريك	دمشق				✓	✓	✓				✓								✓	✓					✓
و بكر الموقع		شافعي				✓	✓		✓		✓					✓									✓
حمد ابن المنلا	حلب	شافعي		✓		✓	✓								✓					✓		✓			

مد الدابسي		شافعي				✓	✓		✓		✓		✓	✓	✓						✓			
مد الفلوجي	حماه	شافعي	✓			✓	✓				✓		✓	✓	✓					✓	✓		✓	✓
ماعيل النابلسي						✓					✓			✓	✓									✓
يل الدلبي	حلب	شافعي	✓	✓		✓	✓							✓	✓		✓			✓	✓	✓	✓	
الله الريلي		مالكي				✓	✓									✓							✓	✓
الرحمن البتروني	طرابلس	شافعي				✓	✓			✓	✓	✓		✓	✓									✓
الرحمن البيروتي	بيروت	حنفي			✓	✓	✓							✓	✓								✓	
ي ابن حمزة	دمشق	شافعي	✓	✓		✓	✓				✓	✓		✓	✓					✓				✓
ي الشافعي	دمشق	شافعي	✓		✓	✓	✓						✓	✓	✓									✓
ي ابن صدقة	حلب	شافعي				✓	✓	✓		✓	✓	✓	✓	✓	✓						✓	✓		
ر سلطان		حنفي			✓	✓	✓				✓	✓	✓	✓	✓	✓	✓			✓	✓			✓
سعود المغربي	نزيل دمشق					✓	✓		✓				✓										✓	
بورخ ايب	دمشق	شافعي		✓		✓	✓	✓	✓	✓			✓				✓		✓	✓		✓		✓
سي الكيناوي	دمشق	شافعي				✓	✓		✓					✓	✓					✓	✓	✓		
ي الحرفوش	نزيل دمشق					✓											✓							
بد الوهاب ابن محمد		حنفي				✓	✓						✓		✓		✓							✓
بد اللطيف ابن المزلق				✓		✓	✓									✓							✓	✓
بد الرحمن ابن الفرفور		حنفي		✓	✓	✓	✓				✓				✓					✓		✓		✓
بو بكر الحلبي	حلب				✓	✓	✓						✓	✓			✓			✓				
حمد السعودي		حنفي			✓	✓								✓	✓					✓	✓		✓	✓

الوظائف	
موارد الرزق	
الموا بالعلوم الغير دينية	
الكتب والدواوين	
اجيزوا	
الاسفار	
اعتزلوا العلم	
وضع العالم عند الوفاة	
كسبوا رضى السلطان	
تسلموا او تركوا اوقافا	
اسماء الكتب	
اسماء الاساتذه	
اسماء المدارس	
جمال جسماني	
خصال حميده	
صوفيون	
اصحاب النسب والخوارق	
نقل تراجمهم	
تاريخ الوفاة	
مكان الوفاة	
الحج	
ذكر وضيفة الاب	
تاريخ المولد	
المذهب	
مكان المولد	

المصـــادر والمراجـــع

- ابن اياس ، محمد بن احمد ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الجزء الثالث ، (القاهرة : بولاق ١٣١٢هـ) .
- ابن الشحنه ، محمد الحلبي ، الدرر المنتخب في تاريخ مملكة حلـــب (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، ١٩٠٩) .
- ابن طولون ، شمس الدين محمد ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، القسم الاول والثاني (القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة ، ١٩٦٢) .

ابن طولون ، قضاة دمشق (دمشق : المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٦) .

ابن طولون ، اعلام الورى (دمشق : وزارة الثقافة والارشاد ، ١٩٦٤) .

- الدبس ، يوسف . تاريخ سورية في ايام السلاطين العثمانيين العظام . الجزء الرابع المجلد السابع (بيروت : المطبعة العمومية ، ١٩٠٣) .
- دهمان ، نقد كتاب الكواكب السائرة ، نشرة جبور ، مجلة المجمـــع العلمي العربي ، المجلد ٢٥ (دمشق ١٩٥٠) .
- طرخان ، ابراهيم . مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة (القاهــرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٠) .
- عاشــور ، سعيد . جامعات اوروبا في القرون الوسطى (القاهــرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩) .
- الغزى ، نجم الدين . الكواكب الســائرة بأعيان المئة العاشــرة . ٣ اجزاء (حريصا - لبنان : المطبعة البوليسية ١٩٥٨) .

- كاهان ، كلود . تاريخ العرب والشعوب الاسلامية . الجزء الاول . نقله الى العربية الدكتور بدر الدين القاسم (بيروت : دار الحقيقة للطباعة والنشر ، ١٩٧٢) .

- كرد علي ، محمد . خطط الشام . الجزء الثاني (دمشق : مطبعة الترقي ، ١٩٢٥) .

- المحبي ، محمد امين . خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادى عشر ، الجزء الاول (المطبعة الوهبية ١٢٨٤ هجرية) .

- المنجد ، صلاح الدين . المؤرخون الدمشقيون في العهد العثماني وآثارهم المخطوطة . (بيروت : دار الكتاب الجديد ١٩٦٤) .

- النعيمي ، عبد القادر . الدارس في تاريخ المدارس . الجزء الاول والثاني (دمشق : مطبعة الترقي ١٩٤٨) .

Articles & Books in English

Ansari, Baznee, "Hisba" Encyclopeadia of Islam, 2nd Ed., Vol. III

- Diez, Ernst, "Masjid". Encyclopaedia of Islam, 1st ed., Vol. III.

- Faroughi, Suraiya. "Social Mobility among the Ottoman 'Ulema in the late Sixteenth Century". International Journal of Middle Eastern Studies, IV, part 2 (April, 1973).

- Khalidi, Tarif. "Islamic Biographical Dictionaries". The Muslim World, LXIII, No. 1, C 1973).

- Hourani, Albert. A Vision of History. Beirut : Khayats, 1961.

- Lapidus, Ira Marvin. Muslim Cities in the Later Middle Ages. Cambridge, Massachusetts : Harvard University Press, 1967.

- Lewis, B., and Holt, P.M. Historians of the Middle East. London : Oxford University Press, 1962.

- Lybyer, Albert Howe. The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent. Cambridge, Massachusetts : Harvard University Press, 1913.

- Shaw, Stanford. The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt. Princeton : Princeton University Press, 1962.

- Trimingham, J.S. The Sufi Orders in Islam. Oxford : Oxford University Press, 1971.

- Tritton, A.S. Materials on Muslim Education in the Middle Ages. London : Luzac & Co. Ltd., 1957.

- Ziadeh, Nichola. Damascus Under the Mamluks. Norman, Oklahoma : Oklahoma University Press, 1964.
